
رحل الجلاد وبقيت
الجريمة
الجنرال الفرنسي السابق
بول أوساريس
سفاح' نكل بالجزائريين باسم فرنسا'
جمع و تقديم : بشير هزرشي
SERVICES SPÉCIAUX
Algérie
Mon témoignage sur la torture
J.AlJarrah
عالم السعادة - الجلفة



اســـتهـــلال

مات مهندس و سفاح الجزائريين زمن ثورة التحرير الكبرى ، و ترك معه كثيرا من الأسرار ، رغم اعترافه في مذكراته بأنه كان يمارس ذلك بناء على أوامر من سلطات فرنسا العليا ، و في المباحث التالية نسلط الضوء على محطات من حياته و أهم جرائمه ، ثم اعترافاته المثبة ، خاصة تلك التي أدلى بها للجزيرة مع الصحفي سامي كليب ، و هو الذي اشتهر بإعدامه لمن قهر جبروت فرنسا (حكيم الثورة : العربي بن مهيدي) ، أغلب المثبتات بتصرف منقولة و مختارة من مواقع تشير إلى دقة المعلومة و مرتبطة بأدلتها التي تصنع الخزي لفرنسا يوم حاول بعض الأحرار محاكمته ، فإذا هو مشمول بقانون العفو الذي دارت فرنسا الغاشمة به كل جرائم الإنسانية المرتكبة في حق الجزائرين ، و ذلك سنة 1968 .... يرحل الجلاد و لكن الجريمة لا تموت ، و هاهي في سجل الخالدين .

أبشع المجرمين هو من يظل يتبجح بجريمته ، و لقد قالها و سطرها له التاريخ قبل رحيله إلى وجهة العدل الحق ، إنه أعرب عن اعتقاده بأن التعذيب يكون له في بعض الأحيان ما يبرره، وقال إنه إذا وقع المنشق السعودي أسامة بن لادن في يده فإنه لن يتردد في تعذيبه أو قتله مثلما فعل ببن مهيدي .

بشير هزرشي

الجلفة في : 12 / 12 / 2017



نبذة عن حياة بول أوساريس



بول أوساريس ،(بالفرنسية: Paul Aussaresses) من مواليد 7 نوفمبر 1918 في سان بول كاب دي جو، في تارن (إقليم فرنسي) و توفي صباح يوم الخميس 3 ديسمبر 2013، هو جنرال في الجيش الفرنسي. مظلي، المعروف عنه استخدامه للتعذيب خلال الحرب في الجزائر، لا سيما في معركة الجزائر، التي اعترف بحصوله لأول مرة في مقابلة مع صحفي من صحيفة لوموند في 4،2003.

خلال الحرب العالمية الثانية، شارك في Jedburgh لتنسيق عمليات المقاومة في الأراضي المحتلة من قبل الجيش الألماني. شارك في خلق صدمة ال11، الجناح المسلح لSDECEE (سلف من DGSE)، قبل أن يشارك في حرب الهند الصينية والحرب في الجزائر. بعد الحرب، وقال انه يعلم تقنيات ضد التمرد في فورت براج، والولايات المتحدة، قبل أن تتم ترقيته إلى رتبة عقيد وتعيينه في القسم الفرنسي من الموظفين الدوليين من منظمة حلف شمال الأطلسي. تم تعيينه ملحقا عسكريا في البرازيل في عام 1973 خلال الديكتاتورية العسكرية في البرازيل، حيث يدرس بناء على تعليمات من الحرب في أدغال مركز ماناوس. عملت Aussaresses فيما بعد تاجر السلاح للشركة طومسون. بعد أن كشف عن التعذيب في الجزائر في العالم وكتابه في الخدمات

الخاصة، الجزائر 1955-1957، تم تجريده من له وسام جوقة الشرف، ضحية التهديدات والهجمات 3، فإنه مع ذلك سوف تنشر في عام 2008 كتابه الثاني الكشف ليس لدي أي dit5. في الجزء الأخير من حياته ارتدى رقعة على عينه اليسرى، التي فقدت نتيجة لعملية من cataracte .
اعترف أوساريس في مذكراته التي صدرت عام 2001 يقر فيها بممارسة التعذيب، وقال إنه أشرف شخصيا على تعذيب وقتل الشهيد العربي بن مهيدي و علي بومنجل ، وأعلن أوساريس بأنه ليس "نادما أو آسفا"، قائلا إنه تم إقرار التعذيب على أعلى المستويات من الحكومة الفرنسية ، وكان ذلك ضروريا للحصول على معلومات استخبارية. وبموجب شروط العفو ما بعد الحرب لم يكن بالمستطاع محاكمته بارتكاب جرائم حرب. وبدلا من ذلك، حوكم و أدين لكونه اعتذر عن جرائم الحرب – وهي جريمة يعاقب عليها بالغرامة. كما جرى تجريده من رتبته العسكرية ووسام جوقة الشرف وهو أعلى الأوسمة في فرنسا.
توفي الجنرال الفرنسي الذي كان يعيش بعين واحدة بول أوساريس المشهور بدفاعه عن استخدام القوات الفرنسية للتعذيب في الجزائر عن عمر يناهز الـ95، حسبما أعلن اتحاد المظليين السابقين الأربعاء 3 ديسمبر .2013
وأعلن اتحاد كي اوزيه جانيه (من يتجرأ يفز) وفاة الجنرال المتقاعد بول أوساريس على موقعه الالكتروني. ولم يذكر البيان متى توفي الجنرال بالتحديد ، ولكنه أخبر أنه كان محجوزا في المستشفى "منذ فترة". وكان أوساريس وهو بطل المقاومة ضد النازية خلال الحرب العالمية الثانية، شخصية مثيرة للجدل في فرنسا و أقيمت جنازة للجنرال أوساريس يوم الثلاثاء 10 ديسمبر 2014 في بلدة باران حيث كان يعيش.
قال للصحيفة الفرنسية

Editions du Rocher 2008 :
((كل شيء في نهاية المطاف هو لخدمة فرنسا)) .

الجنرال أوساريس... رحل الجلاد وبقيت الجريمة

توفي الجنرال الفرنسي بول أوساريس، عن عمر ناهز 95 عاما، وهو الذي اعترف بممارسة التعذيب خلال حرب تحرير الجزائر، ما أعاد إلى السطح التساؤل حول ممارسات فرنسا الاستعمارية في هذه الفترة الماساوية.
قد يكون لسيكولوجيا المجرم دور في قناعات الجلاد، لأنه لا يرى الحياة خارج صور الدم والتعذيب، ولذلك تراه متمسكا بأفكاره ومدافعا عن ممارسات، تحرمها شرائع السموات والأرض. لكن الجنرال الفرنسي بول أوساريس، هو أكثر بذلك بكثير، فرغم مقته من طرف شعوب الأرض، بسبب ماضيه الأسود في حق الشعب الجزائري، ورغم الأذى الذي ألحقه بقيم ثالوث الحرية، الأخوة والمساواة في بلده. إلا أن السفاح مات وهو يعتقد أنه نفّذ جرائمه من أجل مصالح فرنسا العليا.
أعلنت جمعية المظليين الفرنسيين، وفاة أحد أبرز أعضائها، وهو الجنرال بول أوساريس، عن عمر ناهز 95 عاما، لتطوى بذلك إحدى الصفحات السوداء في دفتر فرنسا. لكن التاريخ سيحتفظ في سجلاته، بجرائم الجنرال الذي أبدع في ابتكار أساليب التعذيب والتنكيل، في حق الأسرى الجزائريين في سجون الاستعمار.

لقد أجّلت الجمعية دفن أوساريس ذات يوم، طمعا في تأمين جنازة بطولية للرجل، لكنه لا أحد ينكر أن مواقف وتصريحات أوساريس شكلت عبئا ثقيلا على الكثير من الفعاليات الفرنسية، التي "تخجل" من ماضي أجدادها، وأوساريس تحديدا في المستعمرات القديمة.
ولذلك لم يكن ينتظر المتتبعون حضورا مميزا في الجنازة المنتظرة، فحتى أنصار فرنسا الاستعمارية، ليس بإمكانهم إحراج أنفسهم أمام الرأي العام بترسيم جنازة يبقى صاحبها "وصمة عار " عليهم.

أوساريس يكرس جريمة الدولة

بول أوساريس، السفاح الذي ارتكب أبشع الجرائم في حق الأسرى الجزائريين، هو من أشرس المدافعين عن خيار التعذيب في الجزائر. ولم يتوان في التباهي بتصفية الكثير منهم دون محاكمات، بما فيهم قيادات من ثورة التحرير الجزائرية.
كما لم يخف بأن التعذيب والجرائم التي ارتكبها هو وغيره، إن لم تكن بأمر من القيادة الفرنسية، فإنه لم يتم الاعتراض عليها. الأمر الذي يؤكد مسؤولية السلطات الفرنسية على جرائمها الاستعمارية في الجزائر، ويجدد الحديث مرة أخرى عن "عقدة " التاريخ التي ترهن أية علاقة بين الجزائر وفرنسا.
وقال في إحدى اعترافاته: "نفذت عمليات اغتيال دون محاكمة في الجزائر.. نعم نفذت 24 عملية اغتيال" . وحتى إدانته في العام 2004 بتهمة "تبرير التعذيب"، وإقصائه من وسام الشرف، لم يسمحا برفع اللبس عن شخصية أوساريس، وعن توضيح ما وصفه المؤرخون والسياسيون بجرائم دولة. فأوساريس والذي يسمي نفسه "رجل معركة الجزائر"، هو الذي قتل الكثير من أبطال الجزائر، ولم ير أنه أخطا أو أجرم، إذ شرعن جرائمه وبررها بالقول الموثق: "العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي، وإن

كنت لم أرد أن أقوم به، ذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا، لا يمكن لنا أن نندم عليه" .
ولأن الشر لا ينتهي بسهولة، فإن أوساريس رغم فقده خلال السنوات الأخيرة من حياته، لوظائفه الحيوية كالسمع والرؤية، إلا أن لسانه السليط وذاكرته المتقدة في أرذل العمر، دفعاه لإصدار كتابه الثاني "لم أقل كل شيء"، الذي أماط فيه اللثام عن الممارسات الوحشية لنظام دولة قوية، تعتبر نفسها من الدول الحامية لحقوق الإنسان وحرية الرأي والتعبير. مما دفع رفيقه مارسيل بيكارد، إلى أن يقول له: " ماذا دهاك أن تفتح شدقك؟" .
سيما بعد توريطه لشخصيات فرنسية هامة، على غرار الرئيس السابق، فرانسوا متيران، في العديد من الأعمال المذكورة في الكتابين الأول والثاني، خاصة تلك المتعلقة بالتعذيب في الجزائر باعتباره كان آنذاك وزيرا للداخلية. أما الرئيس جاك شيراك، الذي كان ضابطا صغيرا خلال ثورة الجزائر، فقد قال إنه أصيب بـ"الرعب" من هذه التصريحات العلنية.
في حين تعتبر المناضلة وإحدى ضحايا التعذيب، لويزة إيغيل أحريز، أنه كان على الجنرال أوساريس أن "يقدم اعتذاره" لممارسته التعذيب. وقالت "كان صادقا باعترافه بتعذيب الجزائريين لكنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك. كان عليه تقديم اعتذاراته ." وأضافت: "على الأقل هو اعترف بممارسة التعذيب على عكس الجنرال مارسيل بيجار" أحد أبرز ضباط الجيش الفرنسي خلال الحرب العالمية الثانية وحربَيْ الجزائر والهند الصينية.

لماذا لم يحاكم أوساريس ؟

يصف الجنرال بول أوساريس، في مذكراته عمله كضابط استخبارات، بالقول: "وهكذا صرت ضابط استعلامات.. يُكلّف ضابط الاستعلامات في أيام الحروب، أساسا، بجمع الوثائق والمعلومات اللازمة التي تعين على بناء العمليات الميدانية، هذه المعلومات تتعلق بأرضية القتال وبالخصم كذلك، غير أنّ أعمالا مثل هذه لا تلقى احتراما أو تقديرا عند العسكريين. ولكي يتسنى القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، كان ذلك يتطلب ذهنية خاصة يمكن لها أن تتحمل الأذى الناجم عن تهكم الآخرين.. وأدركت من ثمّ أن إيفادي إلى الجزائر لم يكن مجرد هدية كان يمكن أن تُقدّم لي".

وكانت بداية الجنرال من مدينة سكيكدة بالشرق الجزائري، ويقول: "في ظرف أسابيع معدودة ازدادت حركة التمرد ثباتا وصلابة، وبدأ حينها العد التنازلي، وكان دوري يحتم عليّ أن أكون أكثر هجوميا". ويضيف: "لقد كانت شرطة سكيكدة تمارس التعذيب، مثل باقي الشرطة في كل أنحاء سكيكدة، وكان مسؤولوهم على دراية تامة بذلك. لم يكن أولئك الشرطيون جلادين أو وحوشا، ولكنهم كانوا أناسا عاديين، كانوا أناسا مخلصين لوطنهم، وكانت روح الواجب متغلغلة في أعمق أعماقهم" .

ويتابع: "إنّ التخلص من جبهة التحرير، كان يعني وجود إرادة سياسية فعلية لذلك، ولكنه كان يعني كذلك استعمال كل الوسائل الملائمة.. كان عليّ أن أتعرّف على زعماء جبهة التحرير وأحدد مواقعهم ليتمّ القضاء عليهم في سرية وصمت، وكنت أعتقد أن الحصول على معلومات حول هؤلاء الزعماء سيقودني حتما إلى إلقاء القبض على متمردين واللجوء إلى استنطاقهم.. ونظرا للمهنة التي اخترتها، قمت بقتل بعض الأشخاص، وفعلت أشياء ترهق الأعصاب، غير أني لم أكن أظن أني سألجأ يوما ما إلى التعذيب.

كان في تصوري أنه يمكن أن أتعرض أنا شخصيا إلى التعذيب، ولكنني لم أتصور الواقعة بالعكس: أن أقوم أنا بتعذيب الآخرين".

وصفات التعذيب عند أوساريس

عن الأساليب والطرق التي كان يطبقها للتنكيل بالأسرى الجزائريين يقول أوساريس: " جاء موعد استنطاقهم. كنت أبدأ بسؤالهم عما يعرفونه، غير أنهم أفهموني أنهم لا يريدون البوح بأي شيء.. ألا تكون ردة فعل المتهم دائما الإنكار أو لزوم الصمت؟
وهكذا، ودون وازع من الضمير، أوضح لي رجال الشرطة تقنية الاستنطاقات "الخشنة"، بداية، كان هناك الضرب الذي كان يكفي في الغالب، ثم بعد ذلك تأتي الوسائل الأخرى كالكهرباء والماء.
كان التعذيب بالكهرباء يتم عن طريق مولّدات كهربائية تستعمل في الأرياف من أجل شحن أجهزة اللاسلكي، وكانت هذه المولّدات كثيرة الانتشار. وكان التعذيب يتم عن طريق صعق الأذنين أو الخصيتين، وبعدها يطلق التيار بتركيز مختلف.
وكما يظهر، فإنّها طريقة قديمة، وأنا أعتقد أن شرطة سكيكدة لم تخترع شيئا في هذا المجال.. هذه المرة وبمساعدة الشرطة، كنت أجدني منساقا إلى المشاركة أكثر فأكثر في هذه الاستنطاقات "الخشنة".. إنّ مهمتنا تفرض علينا الوصول إلى نتائج يكون التعذيب غالبا جسرا مؤديا إليها، بل وحتى القتل، وأظن أن كل هذا ليس سوى البداية فقط" .

اغتيال العربي بن مهيدي

بعد عدة محاولات فاشلة لجعله يتعاون مع المستعمر بعد القبض عليه، واستبعاد خيار تمريره للعدالة نظرا للصدى المتوقع إزاء التضامن معه ومع قضيته، قرر الجلادون إعدام العربي بن مهيدي على يد أوساريس، وتغليط الرأي العام آنذاك بأنه انتحر، وفي ذلك يقول: " لم يخن (ابن مهيدي) رفقاءه.. أنا هو الذي تسلّم ابن مهيدي ليلة بعد ذلك في الأبيار (حي في أعالي العاصمة الجزائرية)

ووصلت بسيارات من نوع "جيب" وشاحنة وبرفقتي بضعة عشر رجلا من فريقي الأول، وهم مدججون بالسلاح. وكان النقيب " ألير" هو المداوم حينها.. وطلبت منه إحضار " ابن مهيدي" وتسليمه لي.. وأدخلناه الشاحنة، وتوجهنا بسرعة مُفرطة لأن كمينا تحضره جبهة التحرير لتحريره كان جدّ محتمل.
وقدَّمتُ تعليمات صارمة إلى ضابط الصف المكلف بحراسة زعيم جبهة التحرير الوطني، وقلت له: إذا تعرّضنا لهجوم ما فاقض عليه مباشرة حتى وإن خرجنا سالمين، أطلق عليه النار ولا تتردّد.
."وتوقّفنا في مزرعة منعزلة
ويضيف: "كانت وحدتي تقيم فيها على بعد بضع وعشرين كيلومترا جنوب العاصمة، يسار الطريق. وكانت تلك المزرعة إعارة من طرف أحد الأقدام السوداء، وهي تحوي بناية متواضعة لا تتجاوز الطابق الأرضي، وكان فريقي الثاني ينتظرني هناك.
كانت الوحدة الأولى للمظليين تحوي بضعا وعشرين رجلا، وكان بعضهم ممن يؤدون الخدمة العسكرية، ولكنهم كانوا أهلا للثقة، وكان النقيب "ألير" المدعو "تاتاف" هو المسؤول عنهم، وكان جد مخلص وشرحت له ما الذي سيجري. وأخبرته بأنه يجب على رجاله تهيئة مكان من أجل " ابن مهيدي"، وذلك أن المزرعة ليست مهيأة لذلك، فهي تحتاج إلى تنظيف ونقل لأكوام التبن الموجودة هناك.
وفي نفس الوقت، قمنا بعزل السجين في غرفة مهيأة سلفا، وكان أحد رجالي يقف قبالة بابها. وبمجرد إدخال " ابن مهيدي" إلى الغرفة، قمنا بتقييده وشنقه، بطريقة تفتح المجال لاحتمال حدوث عملية انتحار. وعندما تأكّدت من موته، قمت بإنزاله ونقله إلى المستشفى.. وكنا في منتصف الليل تقريبا، وناديت مباشرة بعدها الجنرال "ماسو"، وقلت له: " حضرة الجنرال، إن ابن مهيدي أقدم على الانتحار، وجثته موجودة بالمستشفى، وسأقدم لك تقريرا غدا

صباحا.. لقد كان يعلم أن تقريري كان جاهزا منذ الزوال، كي أربح بعضا من الوقت.
وكان القاضي " بيرار" أول من قرأ هذا التقرير، وهو يصف بدقة كل تفاصيل الانتحار الذي سيقع في الليلة القادمة.. وقمنا باستعمال المزرعة التي أُعدم فيها " ابن مهيدي" مرات أخرى، وطلبت من بعض رجال الوحدة حفر حفرة كبيرة، وتم دفن أكثر من عشرين جثة فيها" .
سنة 2000 اعترف أوساريس أن "التعذيب فعّال جدا فأغلب الناس ينهارون ويقرون بما يعرفون.. لم يطرح لي أية مشاكل.. لقد تعودت على كل ذلك". وقال حينها " لو أمسك زعيم تنظيم القاعدة أسامة ابن لادن بين يدي سأفعل به كما فعلت مع العربي بن مهيدي ".
ومحمد العربي بن مهيدي، هو أحد القيادات المفجرة لثورة التحرير الجزائرية، وأكبر المجموعة التي حررت بيان أول نوفمبر سنا. كان من الذين تركوا بصماتهم على ثورة التحرير بعبقريتهم العسكرية، ورصيد ممتلكاتهم في سبيل تمويل الثورة. وكان ابن مهيدي يسيّر الثورة من العاصمة إلى غاية إلقاء القبض عليه من طرف جيش الاستعمار، وممارسة أبشع طرق التعذيب والتنكيل عليه، ثم قتله في زنزانته .

تصفية المحامي الأستاذ بومنجل

نفس السيناريو استعمله أوساريس مع بومنجل لكن بإخراج مختلف فقط: "التفت الجنرال "ماسو" إليّ وصوّب عينيه نحو عينيّ وقال بحزم: أوساريس، ممنوع أن يهرب السجين.. مفهوم؟ وعند سماعي هذه الكلمات، توجهت مباشرة إلى الأبيار في نهج "كليمونصو"، أين كان بومنجل موقوفا. في منطقة مليئة بالمباني، كان بعضها

متصلا ببعض بواسطة جسور صغيرة في سطوح الطابق السادس، وكانت زنزانة بومنجل متواجدة في الطابق الأرضي.
وتوجهت نحو مكتب الملازم "د " الذي بدا مندهشا حين رآني، ثم قال لي: ما الذي يمكن أن أفعله لك حضرة القائد؟ لقد كنت في اجتماع مطوّل مع الجنرال "ماسو"، وحسب ظني عند الخروج من هذا الاجتماع، فإنه يجب أن لا ندع بومنجل في هذه البناية التي يوجد بها حاليا.
ولماذا؟ لعدة أسباب.. يمكنه أن يهرب مثلا، فكّر قليلا.. إن "ماسو" سيكون غاضبا إذا حدث ذلك وأين يجب أن نضعه إذن؟ لقد فكرتُ في ذلك جيدا، وأرى أنه من الأحسن أن يحوّل إلى المبنى المجاور، ولكن احذر.. يجب أن لا تمر عبر الطابق الأرضي لأن هذا سوف يجلب الأنظار.
وجحظت عينا "د" الذي لم يفهم قصدي، وإن بدأ دون شك في استشفافه، وقال: حضرة القائد، قل لي بالتفصيل ماذا عليّ فعله؟ إن هذا شيء بسيط، قم بإحضار سجينك، ولكي يتم تحويله إلى المبنى المجاور عليك اجتياز الجسر المتواجد في الطابق السادس، وأنا سأنتظر في الأسفل إلى حين فراغك من التحويل، هل فهمتني الآن؟ وهزّ الملازم " د" رأسه دليلا على الاستيعاب".
ويضيف أوساريس: "وبعد فترة، رجع "د " لاهثا ليخبرني بأن بومنجل سقط من الطابق السادس، وقبل أن يرميه من أعلى الجسر، قام بصرعه بضربة مقبض قادوم وجهها صوب قفاه. وقفزت إلى سيارة " جيب" ورجعت إلى "ماسو" والآخرين الذين كانوا لا يزالون مستغرقين في حديثهم.
وقلت: حضرة الجنرال، لقد قلت لي بأنه لا يجب لبومنجل أن يهرب، اطمئن إذن فإنه لن يهرب لأنه ببساطة انتحر.. وقررت نتائج تشريح جثة بومنجل أنه مات بسبب السحق، وأن جسده ليمحو أي دليل على استعمال العنف ضده، ولم توجه إليّ أة تهمة قط، وأقر

" د" الرواية الرسمية التي تخلُص إلى الانتحار غير المفسَّر للمحامي الجزائري" .
يقول أوساريس: "إن العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقدا في ذلك أنني أحسن صُنعا، وإن كنت لم أرد أن أقوم به، وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن لنا أن نندم عليه" .

اعترافات لحظات الموت الأخيرة للجنرال أوساريس عن وفاة موريس أودان



في كتاب "حقيقة موت موريس أودان" ينشر الكاتب جان شارل دينيو اعترافات اللحظات الأخيرة للجنرال بول أوساريس، بطل التعذيب في حرب التحرير الجزائرية، عن حقيقة وفاة المناضل الشيوعي موريس أودان الذي اختفى بعد إلقاء السلطات الفرنسية القبض عليه.
يتفق الصحفيون والمؤرخون على أن الجنرال بول أوساريس، الجلاد "دون أسف أو ندم" في الحرب الجزائرية، لم يكشف كل ما

يعرفه من أسرار قبل وفاته عن عمر ناهز الخامسة والتسعين في 3 ديسمبر/كانون الأول 2013. فهناك سر كبير كان ينبغي على الجنرال البوح به قبل أن توافيه المنية، سر يكشف ستر واحد من أكبر الألغاز في هذه الحقبة المضطربة من تاريخ فرنسا المعاصر. بيد أن الصحفي جان شارل دينيو في كتابه "حقيقة موت موريس أودان" يكشف لأول مرة كيف اعترف له أوساريس، قبل غروب شمس حياته، بما سماه "جريمة دولة" قائلا: "لا، موريس أودان لم يتبخر هكذا من الطبيعة بعد هروبه في يونيو 1957 لكنه أعدم بقبول ورضا تامين من السلطات السياسية". كشف مثير أضاف فصلا جديدا للروايات الرسمية وغير الرسمية لقضية شغلت المؤرخين السياسيين لأكثر من 55 عاما.

في العام 1957، فيما تصاعدت حدة الحرب في الجزائر أو ما أطلقت عليه السلطات حينئذ "الأحداث"، كلفت الفرقة العاشرة مظلات في الجيش الفرنسي بالتدخل في معركة مدينة الجزائر الرهيبة ضد مقاتلي "جبهة التحرير الوطني". في هذه المعركة كلف القائد الجنرال جاك ماسو كلا من العميد روجيه ترانكييه والقومندان بول أوساريس بقيادة الهجوم المضاد. هجوم قام فيه أوساريس بالإشراف على "التحقيقات المعززة" وهو مصطلح يعني في لغة اليوم "التعذيب " .

وفي بداية العام 2000 كشف أوساريس عن الوسائل والمناهج التي اتبعت في هذه التحقيقات للتعرف على شبكات المقاتلين الجزائريين ومحوها، وسائل تضمنت: الصعق بالكهرباء، إعدامات بالجملة واستخدام ما سمي وقتها "مصل الحقيقة". وسائل لاقت قبولا وتشجيعا جما من الجيش الفرنسي نظرا لما حققته من نتائج باهرة في الكشف والإيقاع بالمقاتلين ومخابئ أسلحتهم واحدا تلو الآخر في القصبة. كان من نتائج هذه السياسة إلحاق الوهن بالحركة المطالبة بالاستقلال ومقاتليها، وهو ما سمح للجيش الفرنسي بتركيز جهوده

على "الحزب الشيوعي الجزائري" وجناحه العسكري الذي اتهمته باريس بمساندة "جبهة التحرير الوطني".
في يونيو 1957 ضربت سلسلة من العمليات الفدائية وسط العاصمة الجزائر. التعقيد الذي صاحب تنفيذ هذه العمليات عزز قناعات الجنرال ماسو بأنه لا يمكن أن تحدث دون مساعدة من الشيوعيين. يضيف جان شارل دينيو: " الأوروبيون المنخرطون في القتال إلى جانب الانفصاليين الجزائريين مثل شوكة في قدم الجنرال ماسو لدرجة وصفهم "بالطابور الخامس" الذي يضرب الجيش الفرنسي في ظهره منذ وقت طويل والذي يجب القضاء عليهم دفعة واحدة وللأبد" .

هل قضى أودان تحت التعذيب؟

اتهم موريس أودان، أستاذ الرياضيات بجامعة الجزائر وناشط شيوعي، بإيواء أعضاء نشطين في "الحزب الشيوعي الجزائري" وأوقف في 11 يونيو/حزيران 1957 وأودع زنازين معسكر اعتقال الأبيار. في اليوم التالي التحق به هنري أليغ، المدير السابق لجريدة "الجمهوري" الصادرة بالعاصمة الجزائر ومؤلف كتاب "الاستجواب" الذي يشجب عمليات التعذيب، والذي خرج حيا من سلسلة عمليات تعذيب مروعة. ورغم أن أليغ خرج سالما إلا أن أودان، عالم الرياضيات الشاب، لم يظهر له أثر بعدها.
ولولا صبر وجلد جوزيت أودان، زوجة موريس، لما خرجت السلطات العسكرية عن صمتها المطبق ولا تفوهت بكلمة عن مصير أودان ولو برواية لا يمكن تصديقها ولكنها لم تتراجع عنها أبدا: موريس أودان هرب أثناء ترحيله إلى معسكر اعتقال آخر ولم يظهر بعدها أبدا .
أما في فرنسا فقد أثارت قضية أودان ضجة كبيرة وتحولت لمثال على ممارسة التعذيب أثناء الحرب الجزائرية. وكثير من الصحفيين والمؤرخين وأقارب أودان يدعمون الفرضية القائلة بأن أودان

قضى بين أيدي جلاديه. في حين أن آخرين يؤكدون بأن الأوامر قد صدرت بتصفية هنري أليغ لكن الضباط المكلفين بالتنفيذ اختلط عليهم الأمر وقاموا بتصفية أودان. وطوال كل هذه السنوات لم يتزحزح الجيش الفرنسي قيد أنملة عن روايته الأصلية. ورغم كل الدعاوى القضائية التي رفعتها جوزيت أودان أمام المحاكم الفرنسية آملة بالوصول إلى الحقيقة وراء اختفاء زوجها، لم تسفر أيا من هذه الجهود عن نتيجة سوى ملف أرشيفي أعطاه وزير الدفاع الفرنسي جان إيف لودريان لجوزيت في يناير/كانون الثاني 2013. جوزيت لم تجد ما يشفي غليلها في هذا الملف وعلقت قائلة – بحسب جان شارل دينيو على العالمين ببواطن الأمور، وأظن أنه لا يزال بعضهم على قيد الحياة، أن يتكلموا.

ولكن السؤال الذي يظل دون إجابة: ما هو السبب الذي دفع جلاد الجزائر، أوساريس، إلى الاعتراف بحقائق تكلل الجبين الوطني الفرنسي بالعار في اللحظات الأخيرة من حياته؟ يقول دينيو: "أعتقد أن بول أوساريس تحدث لأنه لم يكن مثل الآخرين وأنه كان يحمل تحت سترته العسكرية غير القابلة للصدأ، قلبا معذبا منذ وقت طويل وأن تبديد الغموض الذي أحاط باختفاء موريس أودان قد يكون أمله الأخير في الخلاص قبل أن يسلم الروح".

قصة السفاح مع حكيم الثورة ابن مهيدي



في الخامس من مارس من عام 1957، تصدر خبر موت الشهيد العربي بن مهيدي صفحات الجرائد الفرنسية، الصادرة في الجزائر وفرنسا بعناوين تشير كلها إلى أن قائد جبهة التحرير في الجزائر انتحر شنقا، في زنزانته، وبقيت هذه الرواية سائدة دعمتها عشرات الكتب ومذكرات لقادة سامين في الجيش الفرنسي، منهم الجنرال ماسو، في كتابه ‘‘معركة الجزائر الحقيقية".
ولم تُزعزع هذه الأكذوبة نهائيا سوى بصدور مذكرات ضابط الاستخبارات أوساريس، سنة 2001. لينتهي بذلك الجدل القائم حول استشهاد العربي بن مهيدي، الذي تمت تصفيته شنقا بأمر من الحكومة الفرنسية.
عندما ألقت عليه القبض الفرقة الثالثة من المظليين، التي يقودها العقيد بيجار، في 18 فيفري 1957، في شقة بالحي الأوربي وسط العاصمة (أين ضبطت مجموعة من الوثائق، وتم الاستيلاء على مسجلة) لم يستطع المظليون أن يسوقوا العربي بن مهيدي، الذي كان بلباس النوم، وكان قد صرح حسب شهادة النقيب آلير بهدوء تام بأن ‘‘الثوري أيضا يحتاج إلى نوم.. الثوري الذي يتم توقيفه في مخبأ، لأنه احترم كثيرا القواعد الأساسية للسرية: عدم التحرك، عدم إحداث صوت، دون أي حارس شخصي".

استنجدت فرقة المظليين بفرق أخرى لأخذه، خوفا من كمين محتمل قد ينصبه فدائيو الجبهة لتخليص قائدهم أثناء الطريق إلى المعسكر لم يتعرض بن مهيدي للتعذيب. يقول المؤرخ الصحفي بيار بيليسيي، في كتاب بعنوان "معركة الجزائر" أن مقر النقيب آلير شهد أغرب النقاشات بين زعيم الآفلان والضباط الفرنسيين، لأن العربي بن مهيدي مناضل لا يشبه الآخرين، إنه عقل مدبر للمتمردين، يتحدث بإصرار وقناعة، اعترف أن إضراب 28 جانفي كان خطأ، وتحمل مسؤولية "الإرهاب في المدن". كان مقتنعا بجدوى الإرهاب الأعمى والعنف الأقصى، معتبرا ذلك سلاحا سياسيا ودبلوماسيا.

بدأ الحديث مع النقيب آلير، ليتواصل مع العقيد بيجار، الذي يقول عنه إنه كان منبهرا بخصمه، واقترح عليه فك قيود يديه ورجليه، غير أن بن مهيدي أفهمه بهدوء بأنه لن يفكر إلا في أمر واحد في حال فك قيوده: الفرار..

وفي المحادثة –حسب بيليسيي- كان العربي بن مهيدي يتعرض إلى كل المواضيع.. نعم الثوار يحصلون على كثير من الأسلحة: برّا وبحرا، وأنه توجد في الجزائر شواطئ عديدة وقوارب، للوصول إلى البواخر.

وصرح العربي بن مهيدي أن الآفلان لا يرغب في تعاون الحزب الشيوعي، وأن تصريحات أعضائه ليست سوى مزاعم دون أساس. وأن الخلاف بين العرب والبربر غير مهم، وأن الوحدة تامة كاملة: حول النقطة الأساسية، وهي استقلال الجزائر.

عن عبد الناصر، –دائما حسب مزاعم بيليسيي- قال: "لا آبه بعبد الناصر ولا بكريستيان بينو. وعندما كان بيجار، في أحد أحاديثه التي كانت تطول ببن مهيدي حتى الصباح، لإقناع بن مهيدي بطرق عمل فرقه لحماية الأبرياء، ومنع الإرهاب، كان بن مهيدي يقول

عن قنبلة عندنا أفضل من خطاب طويل. وعندما لوح له النقيب آلير والعقيد بيجار أنه سيخسر، رد بن مهيدي:
لا تعتقدوا ذلك.. أنتم الذين ستخسرون الجزائر.. تفاوضوا " ـ بسرعة مع الثوار مادام أمامكم وقت، فإن الشرخ يتوسع .. هناك آخرون سيأتون بعدي وسيأخذون مكاني، ستساعدنا أمم أخرى وسنتعامل معها، ولن نتعامل معكم، ستفلت الأمور من بين أيديكم ومن أيدينا أيضا.." .
وفي لقاء آخر، حسب بيار بيليسيي، يكون العربي بن مهيدي قد رد بهدوء على بيجار أن عليه أن يكون متبصرا، لكونه يعلم جيدا أنه سيقتل يوما، على يد أعدائه أو على يد رفاقه في الآفلان، مضيفا أن الذين يكافحون في الجبال لن يتمكنوا من السلطة، بل آخرون لم يفعلوا شيئا، أو لم يقوموا إلا بالقليل.
وعند تحويل العربي بن مهيدي من مقر الفرقة الثالثة للمظليين، خشي ضباط الاستعلام من هجوم يستهدفهم لتخليص قائدهم العربي بن مهيدي، وعندما قاموا بذلك جاء بيجار لتحيته، وقرر النقيب آلير خرق القانون، الذي يمنع تقديم التحية الشرفية بعد غروب الشمس، وقدمت ـليلا- فرقة عسكرية السلاح كتحية عسكرية لقائد الثوار. ثم قال له آلير:
إلى اللقاء، بن مهيدي، لا أعرف إن كنا سنلتقي مرة أخرى.
ورد بن مهيدي:
مع السلامة، ولكن لن أقول لك إلى حين.
ويضيف آلير عندما ابتعد العربي بن مهيدي ليلا تحت حراسة مشددة: "لو لم أعرف الماركسية في معسكرات الفيتناميين، لكانت لي الرغبة كي أساعده على الفرار، لقد كان عظيما جدا، سواء كنت مخطئا أو مصيبا فقد انبهرت ببن مهيدي".
وصل العربي بن مهيدي إلى سجنه الجديد على الساعة 23.00، ليلة الثلاثاء 3 إلى 4 مارس 1957، وكان سجنه عبارة عن 3

غرف، كانت هناك قضبان حديدية على النوافذ، وسرير مع طاولة بكرسيين. غرفتان للسجين، إحداها مليئة بحزم من التبن، والثالثة لحراسه.
اشتكى الحراس من عدم توفر العدد الكافي لحراسته، والسرعة التي تمت بها تهيئة الزنزانة.
تضيف تقاريرهم أنه تم وضع السجين قرب حزم التبن، وأنهم غفلوا عن حراسته، فقام بن مهيدي بربط خيط كهربائي وجده خلف إحدى حزم التبن، بأنبوب تدفئة، على علو مترين ونصف المتر. وعلى الساعة 23.15 شنق نفسه.
الإسعاف كان سريعا، حيث حول بسرعة إلى مستشفى مايو، وهناك لم يتمكن الأطباء من إنعاشه. تذكر الجنرال ماسو ما قاله له الوزير ماكس لوجان، عن أن اختفاء بن مهيدي أمر مرغوب فيه. وعندما بدا ماسو مصدوما أضاف الوزير ماكس لوجان:
— "لو لم يكن قائد الطائرة التي أقلت بن بلة فرنسيا، لما حطت أبدا على الأرض".
بقي موت العربي بن مهيدي موضوع جدل في فرنسا، قبل أن يحسم أوساريس الأمر بشهاداته، في كتابه "الأجهزة الخاصة في الجزائر من 1955 إلى 1957?، وكانت الروايات التي نشرتها الصحافة قبل ذلك متناقضة: الأولى تقول إنه قتل بالرصاص خلال محاولة فرار، أما الثانية، التي قدمها رسميا ميشال غورلان، الناطق باسم الحاكم العام روبير لاكوست- فتحدثت عن انتحار تم شنقا في الغرفة الزنزانة، وأن العربي بن مهيدي قد مزق قميصه إلى شرائط، وتحويلها إلى جدائل متصلة، ليصنع حبلا علقه على النافذة. أما الرواية الثالثة التي تحدثت عن انتحاره شنقا، فأشارت إلى أن ذلك تم بواسطة خيط كهربائي كان متواجدا تحت حزمة تبن، وهي الرواية التي تم تصديقها، وكانت الأكثر قبولا، نظرا

لخلوّ الجثة من جروح الرصاص (كما زعم ياسف سعدي سنة 2013 كذبا) .
كما أن العربي بن مهيدي المحروس عن قرب لا يستطيع تمزيق القميص وجدل شرائطه.
وكان المرحوم عبد الكريم حساني، صهر الشهيد، وزوجته ظريفة بن مهيدي، قد رادا على أكاذيب ياسف سعدي، الذي ادّعى أن بن مهيدي قتل رميا بالرصاص، وأنه رأى بأم عينيه آثار الرصاص على الجثة....
وأكد حساني وزوجته انه بن مهيدي قتل مشنوقا، وأنهما شاهدا آثار الحبل على الرقبة عندما عاينا رفات الشهيد.
في سنة 2001، وفي كتابه ‘‘الأجهزة الخاصة في الجزائر 1655-1957?، الصادر عن دار نشر بيران، اعترف الجنرال بول أوساريس أنه أعدم العربي بن مهيدي شنقا دون محاكمة، وأنه غطى على ذلك بالادعاء أن موته كان محض انتحار، وأنه إعدامه كان بموافقة القيادة العسكرية والقاضي الذي قرأ التقرير المزعوم عن الانتحار، قبل أن يحدث.
في حوار مع يومية لوموند، يوم 5 مارس 2007، وصف أوساريس الساعات الأخيرة من حياة العربي بن مهيدي، حيث جلب من العاصمة إلى متيجة، إلى مزرعة يملكها أحد المعمرين المتطرفين، يقتاده 6 رجال من بينهم أوساريس. وكانوا قد حضروا لهذا الإعدام، بتعليق حبل موصول بأنابيب التدفئة، وقد قام رجل منهم بتمثيل دور الضحية للتحقق من متانة الحبل، فاعتلى المقعد ووضع رأسه في عقدة الحبل، وعندئذ انفجر بقية الرجال ضاحكين.
أراد احد المظليين أن يضع عُصابة على عيني بن مهيدي، فرفض، فقال المظلي إنها الأوامر، عند ذاك قال بن مهيدي إنه عقيد في جيش التحرير الوطني ويعرف ما معنى أوامر. لقد رُفض طلب بن

مهيدي ووضعت العصابة عليهما، فسكت حتى النهاية. أعاد الجلادون العملية مرتين، ففي الأولى تمزق الحبل.
هذه الحقائق –رغم قسوتها ولاإنسانيتها ومناقضتها للأخلاق العسكرية وقيم المروءة- كانت أرحم، لأنها وضعت حدا لأكذوبة انتحار العربي بن مهيدي بعد نصف قرن من الحادثة، وصار واضحا اليوم –وبدقة- كيف اغتيل بن مهيدي، والظروف التي تم فيها ذلك.
لقد صارت واضحة –اليوم- ظروف وكيفية اغتيال الزعيم الشهيد الذي لم يتعرض للتعذيب كما تزعم روايات الاستغلال السياسي للشهداء كسجل تجاري، لأن العدو عرف قيمة الرجل، وقد حدثت في قيادة الجيش خلافات، فقد أراد العقيد بيجار (الذي كذب وقتها رواية الانتحار) أن يستميل العربي بن مهيدي من خلال معاملته بليونة، في حين اقتنع آخرون باستحالة ذلك، وبأن الرجل لا يمكن أن يغير قناعاته.
ويصف أوساريس في كتابه بيجار بالغباء، لأنه أراد أن يثبت له في لقاء أنه يستطيع أن يستميل إليه بن مهيدي، وسرد ما دار بين الثلاثة، حيث قال بيجار لبن مهيدي:
ما رأيكم في فرقتي" (الفرقة الثالثة للمظليين)"؟
فأجاب ابن مهيدي :
"نشطة" ..
فواصل بيجارقائلا :
وكيف تفسرون قدرتها على القبض عليكم؟
فأجاب بن مهيدي :
من حسن حظكم وسوء حظي.
قال بيجار :
"لقد وشى رفاقك بك" .
نظر إليه بن مهيدي وتساءل :

لماذا يفعلون ذلك ؟
فقال بيجار:
"ببساطة، لأنهم من منطقة القبائل، في حين أنك عربي" .
فابتسم بن مهيدي ساخرا، وهنا انتهى الحديث، حيث تفرس أوساريس في بيجار، ثم ساق سجينه مباشرة نحو حتفه في متيجة، حيث سيعدمه هناك. ولم ينس أن يقول لبيجار إن كلامك فارغ، لأن بن مهيدي لن يقبل أن يصبح عميلا، مثل بعض السفهاء الذين يزعمون أنهم أبطال.
يعتبر إعدام سي محمد العربي بن مهيدي أكبر جريمة حرب ارتكبت، ضاربة بمعاهدة جنيف المتعلقة بمعاملة أسرى الحرب عرض الحائط، حيث رفض للشهيد حتى رغبة عدم إغماض عينيه، وكانت الكلمات التي سبقت سكوته النهائي هي: "أنا عقيد في جيش التحرير الوطني، وأعرف ما هي الأوامر" .
أصبح اليوم واضحا تورط الحكومة والدولة الفرنسية في هذا الاغتيال الجبان واللاأخلاقي. وكان محامي الآفلان جاك فيرجيس قد أكد أن الأمر بتصفية سي العربي بن مهيدي جاء من وزير العدل وقتها، فرانسوا ميتيران، الذي أصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية الفرنسية. ويزعم الاشتراكيون حتى يومنا هذا أن ميتيران إنساني، لإلغائه عقوبة الإعدام.
نبوءة الشهيد، التي أعلنها لبيجار قائلا: "إني أعلم أنني سأقتل، على يد أعدائي أو على يد رفاقي"، تحققت بالنسبة إليه وبالنسبة إلى رفيقه عبان رمضان، الذي لاقى حتفه في 27 ديسمبر 1957 على يد رفاقه، مخنوقا بحبل، بالطريقة نفسها التي قتل بها العربي بن مهيدي، وكان عبان مقرر مؤتمر الصومام، وبن مهيدي رئيسه.

حديث عن أكثر من ثلاثة آلاف جزائري مفقود

(مذكرات أوساريس في المعمعة)



برز تعبير "جمبري بيجار" عقب تدخل المظليين الفرنسيين بقيادة الجنرال ماسو، لكسر إضراب الثمانية أيام الذي دعت إليه جبهة التحرير الوطني بين 28 جانفي و4 فيفري 1957. ولجأ هؤلاء المظليون لاستعمال وسائل قمعية رهيبة، وقاموا بحملات اعتقال واسعة في أوساط سكان مدينة القصبة، وبطريقة عشوائية، بغية تكسير النظام الثوري والتعرف على قادة الثورة، والعثور على مخابئ الأسلحة وأماكن صنع القنابل.

وتميزت تلك المرحلة باتخاذ الحكومة الفرنسية، عبر الحاكم العام "روبير لاكوست"، قرار منح الجيش الفرنسي مطلق الصلاحيات لوضع حد للعمليات الفدائية التي كان يقوم بها فدائيو ياسف سعدي، فانتشر زهاء عشرة آلاف من المظليين الملقبين بـ"الفهود" بسبب بزاتهم المرقطة، وشنوا حملات اعتقال واسعة، ونقلوا آلاف الجزائريين إلى مراكز للفرز في بوزريعة وبني مسوس وفيلا سوزيني، وقاموا بإعدامات من دون محاكمة، أشهرها إعدام العربي بن مهيدي في فيفري 1957، والمحامي علي بومنجل في شهر

مارس من نفس العام، مثلما اعترف بول أوساريس في مذكراته.
وكان الرئيس الفرنسي جاك شيراك قد اتخذ قرار نزع وسام الشرف من أوساريس بعد الجرائم الفظيعة التي اقترفها في حق الجزائريين، منذ أن شغل منصب ضابط مكلف بالاستخبار في الشمال القسنطيني سنة 1955. وتمت محاكمة أوساريس بتهمة "تمجيد استعمال العنف والتواطؤ في كتابته"، وليس بتهمة "اللجوء إليه". وسبق لأوساريس أن انتقل في نوفمبر 1962 للتدريس في المعاهد العسكرية الأمريكية، وتخصص في تلقين كيفية قمع "الحروب الشعبية"، استنادا إلى تجربته في الجزائر خلال حرب التحرير، وكان يردد أمام طلبته قائلا: "الجماهير هي العدو خلال الحروب الثورية". وكان يضيف: "يجب إعدام كل من تعرض للتعذيب".
يذكر أن بعض جماعات حقوق الإنسان الفرنسية سعت لمحاكمة الجنرال أوساريس عقب صدور مذكراته، بتهمة ارتكاب جرائم ضد الإنسانية، إلا أنها لم تتمكن نظرا لصدور عفو عام سنة 1968 عن ما ارتكب في "حرب الجزائر" من جرائم حرب، لكنها نجحت في المقابل في إقامة دعوى قضائية ضده بموجب قانون يجرم محاولات تبرير جرائم الحرب.

رمي الجثث في عرض البحر

تشير عدة مصادر تاريخية فرنسية إلى أن عملية التخلص من جثث هؤلاء المعتقلين بعد إعدامهم دون أي محاكمات كانت تتم بواسطة رميها في الجبال المجاورة للجزائر العاصمة، لكن بعد وقت قصير تم العثور على بعضها، ما دفع القيادة العسكرية إلى التفكير في إيجاد طريقة أخرى للتخلص من تلك الجثث، فجاء خيار نقلها عبر المروحيات إلى عرض البحر لرميها هناك، وبعد أيام كانت الأمواج تعيدها إلى الشاطئ، وهنا ظهرت استعارة "جمبري بيجار". ويروي الجنرال "بول أوساريس" في مذكراته أنه هو من

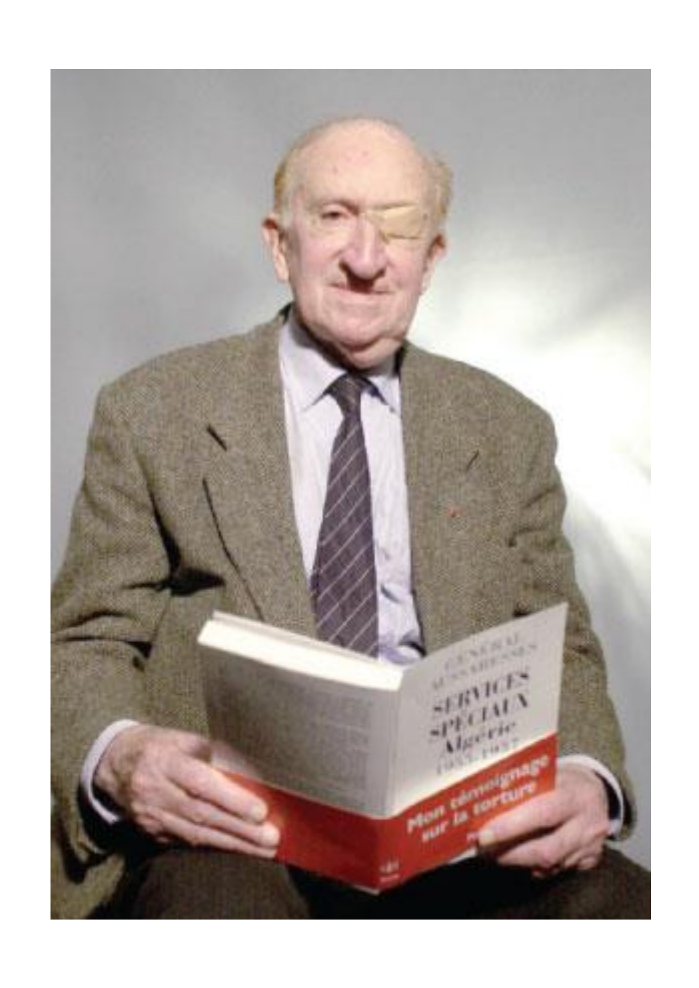
اقترح على الجنرال ماسو ربط هؤلاء المعتقلين بعد تعذيبهم إلى كتلة من الإسمنت والإلقاء بهم في عرض البحر، حتى تظل جثثهم مختفية ولن تظهر مجددا مثلما كان يحدث في السابق.
وبينما حرص "بول تيتغن"، أمين عام الشرطة الفرنسية على مستوى العاصمة، من 1954 إلى غاية سنة 1957، على تحذير مظليي الجنرال ماسو من القيام بأي تجاوزات، مؤكدا على ضرورة سلامتهم من أجل محاكمتهم، لم يكترث الرائد "بول أوساريس" بذلك، فكان يتفنن في التعذيب والتخلص من الجثث برميها في عرض البحر. وكتب في مذكراته بكل برودة دم: "لا يمكن إطلاق سراح شخص بعد أن تعرض للتعذيب"، في إشارة منه إلى بشاعة التعذيب الذي كان يطال الجزائريين بعد إلقاء القبض عليهم. وقد بلغ عدد هؤلاء المفقودين خلال معركة الجزائر لوحدها ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربعة وتسعين مفقودا حسب "ايف كوربير"، وهو العدد الذي كشف عنه "بول تيتغن" الذي عارض ممارسات الجنرال ماسو، وقدم استقالته من منصبه للحاكم العام "روبير لاكوست" بتاريخ 29 مارس 1957، وكان بمثابة ثاني شخصية مهمة تستقيل من منصبها احتجاجا على عملية القمع والجرائم التي كانت ترتكب في حق الفدائيين الجزائريين، بعد الجنرال "باري دو لابورديير". وأبدى "بول تيتغن" في رسالة الاستقالة التي نشرها "ايف كوربير" لأول مرة في الجزء الثاني من كتابه "حرب الجزائر"، امتعاضه من ممارسات ماسو وعقدائه، في حين لم يتمكن الحاكم العام "روبير لاكوست" من فعل أي شيء لوضع حد لتلك التجاوزات، بعد أن أعطى "ورقة بيضاء" للجنرال ماسو لقمع الثورة في الجزائر العاصمة.

عودة الحديث عن المفقودين عقب رحيل بيجار

وكشف "بنيامين ستورا" والصحفي الفرنسي "فرانسوا مايلي" في كتابهما الصادر بعنوان "فرانسوا ميتران وحرب الجزائر"، أن هذا

الأخير، واستنادا إلى تقارير مسؤول مركز بني مسوس حيث كانت تتم عملية الفرز سنة 1957، أصر على تناول قضية المفقودين، لكن "لاكوست" رفض الاعتراف بوجودها. وعادت قضية المفقودين الجزائريين خلال معركة الجزائر، عقب رحيل مارسيل بيجار في جوان 2010، وطرح فكرة نقل رفاته إلى "البنثيون"، فتم فتح ملف التعذيب خلال معركة الجزائر من جديد، وعادت بعض الصحف الفرنسية منها أسبوعية "لوبوان" للدور الذي لعبه بيجار، فاستعملت مجددا الاستعارة الشهيرة "جمبري بيجار" للحديث عن هؤلاء المفقودين. وبينما حاول عدد من المؤرخين الفرنسيين، وعلى رأسهم "غي بيرفيلييه" التشكيك في العدد الذي قدمه "ايف كوربير" في كتابه استنادا على تقرير "بول تيتغن"، أصر المؤرخ "روبير مينييه" على الاعتراف بصحة العدد المقدم. وكان الجنرال ماسو قد حاول تفنيد ما أسماه مزاعم "بول تيتغن"، وكتب في كتابه "معركة الجزائر الحقيقية" أن عدد المفقودين لا يتجاوز المائتين. وهي المحاولة نفسها التي قام بها العقيد "ايف غودار" حينما نشر كتابه "المظليون في المدينة"، بينما اعترف "هنري بويو" الذي ألحق بفيلا سوزيني خلال أدائه الخدمة العسكرية بالجزائر، في كتاب صدر له بعنوان "فيلا سوزيني"، بوجود "عشرات آلاف من المعتقلين الجزائريين لم يعرف لهم أي مصير، بعد مرورهم بفيلا سوزيني".

للعلم، تعترف دراسات تاريخية فرنسية حديثة أنجزها جيل جديد من المؤرخين، وبالأخص "رفائييل برانش" و"سيلفي ثينو"، بوجود قضية المفقودين، وأشارت إلى أن عدد هؤلاء بلغ ثلاثة آلاف، استنادا على ما جاء في مذكرات أوساريس .



حوارقناة الجزيرة

(الصحفي سامي كليب مع ضيفه السفاح بول أوساريس)

تاريخ الحلقة : 13 / 06 / 2003





و هو منقول كما ورد من مصدره حال إذاعته

سامي كليب: علموني أن أقتل دون أن أترك أثراً، علموني أن أكذب وألا أبالي لا بعذابي ولا بعذاب الآخرين.

هكذا مشاهدي الأعزاء يتحدث ضيفنا اليوم بعد أربعين عاماً من الصمت، هو الذي عذب الكثير في الجزائريين، وشنق بيديه المناضل الجزائري الكبير العربي بن مهيدي، هل فعل ذلك حقداً؟ أم لمصلحة فرنسا كما يقول؟

بداية العمل العسكري لبول أوساريس ودور عائلته في ذلك

ضيفنا اليوم هو الجنرال الفرنسي السابق بول أوساريس.

قبل 83 عاماً وُلِدَ بول أوساريس في مدينة (بوردو) الفرنسية، وفي كنف عائلة برجوازية تعلق بداية بكبار أدباء فرنسا قبل أن تستهويه فنون القتال أولاً في صفوف قوات التحالف الدولي في لندن ثم في الذراع العسكري لأحد أبرز أجهزة الاستخبارات الخارجية الفرنسية قبل أن يتولى رئاسة لواء المظليين، من هناك إلى فيتنام ثم الجزائر، وغياهب التعذيب والقتل والموت التي يروي اليوم تفاصيلها لكاتب يساعده في كتابة مذكراته.

بول أوساريس: خلال حرب 39 أصيبت عيني اليسرى بشظايا قنبلة صغيرة، عيني اليسرى إذن وقد أشرف على معالجتي طبيب مساعد قال إن الإصابة طفيفة، وأنها ستشفى لوحدها، لذلك عدلت عن الذهاب إلى المستشفى خشية إبعادي عن جيش المشاة.

سامي كليب: ما هو السبب الذي دفعك للعمل العسكري؟ هل الاحتلال الألماني مثلاً؟
بول أوساريس: كانت هناك تقاليد عسكرية قديمة في العائلة، فقد كان والدي يعمل مساعداً لحاكم منطقة قبل أن ينتقل للعمل في المجال الصِّحافي.
سامي كليب: صحف اليسار.
بول أوساريس: في الصحافة اليومية نعم، كان ذلك في مدينة (بوردو)، ولكن قبل ذلك أدى واجبه العسكري كضابط مساعد في جيش المشاة، ذلك أن تقاليد العائلة العسكرية تعود حسب علمنا إلى جيش نابليون، هذا الجيش الذي يعرف بالجيش الكبير، فجدي الثالث جون أوساريس كان جندياً في جيش المشاة الذي شارك في حملات الجيش الكبير، وفي معركة (أيلو) في الثامن من شباط فبراير عام 1807 أصيب جون أوساريس إصابة بليغة؟
سامي كليب: إذن كان تأثير العائلة عليك.
بول أوساريس: نعم.. نعم تأثري بالعائلة دفعني إلى الانخراط في صفوف الجيش.
سامي كليب: أقترح عليك أن نرى الصور قليلاً لكي نرى بداياتك العسكرية، أود أن تقول لنا ما هي هذه الصور؟
بول أوساريس: في هذه الصورة كنت ضابط صف وبعدها كولونيل وأُشرِفُ على قيادة فوج من المظليين.
سامي كليب: كان في أي سنة؟
بول أوساريس: كان ذلك في العام 1966، هذه الصورة التُقِطت في العام 57 عندما شاركت في حرب الجزائر العاصمة، أما هذه الصورة فقديمة، إنها تعود إلى العام 46.
سامي كليب: أين كنت؟
بول أوساريس: أنا في ذلك التاريخ كنت قائداً لكتيبة الصاعقة الحادية عشر في منطقة الـ(بري نيل أوريون باه) الفرنسية، هذه

الصورة تعود في تاريخها إلى شهر تموز/يوليو أو إلى آب/أغسطس من العام 57 بعد حرب الجزائر العاصمة التي شاركت فيها فيما بين شهري يناير/كانون الثاني وتموز/يوليو، ونبدو في الصورة خلال إحدى عملياتنا في جبال جنوب شرق الجزائر.

سامي كليب: هذه كانت مرحلة هامة في حياتك العسكرية، معركة الجزائر سنعود إليها لاحقاً طبعاً ولكن بكلامك.. بكلمتين (...) تعلق عليها؟

بول أوساريس: أجل كان لحرب الجزائر العاصمة أثر كبير في تجربتي العسكرية.

سامي كليب: طبعاً كل الشهرة الإعلامية التي نلتها في فرنسا جاءت بسبب ما قلته عن الجزائر بعد 40 عاماً من الصمت، أنت الذي كنت مقاتلاً ضد الاحتلال النازي هنا في فرنسا، كيف قبِلت أن تقاتل الذين كانوا يناضلون من أجل تحرير بلادهم في الجزائر؟

بول أوساريس: في ذهني وعلى الصعيد النفسي لم أكن أشعر بأي تناقض، ذلك أن فرنسا قد احتُلت من قِبل ألمانيا النازية بعد حرب مفتوحة بين الجانبين، ولم يكن الشأن كذلك في الجزائر التي كانت تعتبر بالنسبة للفرنسيين جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، فعلى المستوى الإداري مثلاً كانت الجزائر تنقسم إلى ثلاثة أقاليم، وبناءاً على ذلك بدت لي حركة الاستقلال الجزائرية في ذلك الوقت بدت لي عملاً غير شرعي.

سامي كليب: هل تعني جبهة التحرير الجزائرية؟

قرأت أيضاً يعني في الحديث عن علاقتك بالجزائر أنك حين خُيرت بأن تختار اسم حرب فقد اخترت اسم (جونسوال) والذي كان شارك في معركة الجزائر عام 1830، هل هذا يعني أنك كنت فعلاً تنوي الذهاب إلى الجزائر بأي ثمن؟ وأن تقاتل هناك؟

بول أوساريس: جونسوال كان أحد أقرباء جدي، وكان جندي خيالة في الجيش الكبير التابع لنابليون، قبل أن يصبح ضابطاً وذلك مكافأة له على جدارته، لذلك حظي على هذه الترقية.
سامي كليب: أي الشعور كان تولد لديك حين زرت الجزائر كعسكري هل شعرت أنك في بلد عدو وأن الذين يقاتلون للتحرير هم إرهابيون؟
بول أوساريس: عندما انتقلت للعمل في الجزائر أحسست وكأنني في بلدي، لأنني التقيت هناك بأصدقاء جزائريين قدامي، كنت أشعر بالطمأنينة وذلك لاقتناعي بأني على أرض صديقة، لم يكن.. ينتابني أي خوف، ومع أني أتفهم قيام حركة تحرير في الجزائر فإني على يقين من أن ذلك من عمل أقلية من غير أصدقائنا.
حرب الجزائر.. نقطة تحول في حياة أوساريس العسكرية
سامي كليب: في ربيع العام 1955 بدأ التحول في السياسة الفرنسية من أجل حزم أكثر وعمل عسكري أقصى ضد حركة التحرير الجزائرية، هل منذ ذاك الوقت تغيرت تجربتك العسكرية مع حركة التحرير؟
بول أوساريس: أجل منذ انتقالي للعمل في.. في (فيليب فيل) كضابط مخابرات، كان على أن أواجه مباشرة التطورات العسكرية التي جدت على الساحة حينها، بالطبع اتصلت منذ قدومي بالجهات صاحبة العلاقة بعملي في المخابرات كالسلطات الإدارية والقضائية والبوليس، ولم أستثني أي من هذه الأجهزة الإدارية بما فيها إدارة الماء وكذلك إدارة الغابات، أنا كنت على اطلاع بوجود حركة الاستقلال، ولكنها لم تكن في نظري قادرة على القيام بأي عمل عسكري، ولكن تغيرت هذه النظرة بالنسبة لي منذ السادس من حزيران/يونيو عام 55، وعندما هاجم عامل مسلم زميلاً له من الفرنسيين.
سامي كليب: (أنبييه نوا) أحد من يسموه بالأقدام السوداء.

بول أوساريس: أجل فقد هاجم هذا العامل المسلم الذي ينتمي إلى مخيم العالية أحد المناجم القريبة من (فيلب فيل) هاجم أحد العمال من الفرنسيين الذين يقيمون في الجزائر، وكان يعمل معه في المخيم نفسه، وهوى عليه بفأس وفر هارباً، وفي الوقت نفسه دوت انفجارات في 8 مواقع في العاصمة، أما المعتدي فقد أُلقي القبض عليه سريعاً وتم استجوابه من قِبَل البوليس القضائي، هكذا حصلت تلك الحادثة.

سامي كليب: تحت إشرافك مباشرة.

بول أوساريس: من المعلوم أن مثل هذه الأحداث لها صدى كبير، ولم يكن بوسع البوليس القضائي.. لم يكن بوسعه استغلال هذه الحادثة استغلالاً جيداً، ولهذا لقد استدعاني المحقق وقال لي: إنني معنيٌّ بدرجة أولى بصفتي ضابط مخابرات علاوة على أن هذا الحادث فريد من نوعه، إن كان عليَّ أن أتولى هذا الأمر بمساعدة البوليس القضائي والمخابرات العامة، سريعاً أدركنا أن لذلك الحدث أبعاداً أخرى تتجاوز الاعتداء الذي قام به ذلك العامل المسلم على زميله الفرنسي، وأدركنا أيضاً أن منظمة تقف وراء ذلك.. وراء ذلك الاعتداء طبعاً، ولم يكن هذا الحادث عملاً فردياً، لذلك حاولنا الضغط على ذلك العامل لمعرفة أعضاء المنظمة التي تقف وراء الحادث.

سامي كليب: بأي وسائل حاولت أن تعرف المزيد عن حركة التحرير من هذا العامل؟ هل هنا بدأت عمليات التعذيب ضدهم؟

بول أوساريس: توليت شخصيا التحقيق مع هذا العامل بالاتفاق مع البوليس القضائي والمخابرات العامة، وكان العنف الجسدي أول وسيلة للتحقيق مع هذا العمل [العامل]، دوائر الأمن و(الجاندرمة) شاركت أيضاً في هذا التحقيق الذي رافقه إذن العنف الجسدي.

سامي كليب: هل تحدث فيما بعد؟

بول أوساريس: كلا لم يتكلم.

سامي كليب: قُتِل تحت التعذيب، كيف حصل ذلك هذا العامل؟
بول أوساريس: أعتقد أنه مات بعد الإجهاد الذي أصابه من جراء احتجازه إلى مدة ساعات طويلة.
سامي كليب: بعد هذا الحادث هل بدأت عمليات التعذيب بشكل واسع؟ طبعاً سنعود إلى تعذيب قادة من جبهة التحرير -ولكن هل بدأتم آنذاك بتعذيب الجزائريين للحديث؟
بول أوساريس: كلا فقد سعيت بعد ذلك في البداية للحصول على المعلومات من خلال اتصالاتي بجهات عدة، وذلك من خلال الأخبار التي كانت تصلني من الجزائريين أنفسهم، طبعاً من توالت الأخبار بعدما تأكد الجميع من جدوى العمل الاستخباراتي، وتحديداً بعد التحقيق مع ذلك العامل، وبعد ما أدت التحقيقات إلى وفاته من دون الحصول على معلومات.
سامي كليب: ما الذي كان يدفع الناس للحديث؟ هل خوف من التعذيب؟ أم قلة تأييد جبهة التحرير وحركة التحرير في الجزائر؟
بول أوساريس: ما دفع بالبعض للحديث هو اقتناعهم بالطابع الإجرامي الذي يميز نشاط جبهة التحرير الجزائرية بعد الاعتداء الذي ذكرناه على مواطن عادي من قِبَل زميل يعمل معه، إذن تلقينا معلومات كثيرة جداً من أشخاص مقربين من جهة التحرير الجزائرية، لاعتقادهم بأن الطابع السلمي لنشاط الجبهة بدأ يتحول نحو نوع من ممارسة أعمال العنف.
سامي كليب: طبعاً الآن نتحدث للتاريخ ومن الصعب استعادة الشعور نفسه ولكن أي شعور انتابك حين قُتل هذا العامل تحت التعذيب؟
بول أوساريس: لقد شعرت بالأسف لوفاته، ولكنني وددت لو اعترف ولو أخبرنا عن المنظمة التي كانت وراء الانفجارات والاعتداءات.

سامي كليب: اسمح لي باستعادة بعض عباراتك التي استخدمتها في كتابك الذي نراه خلفنا، تقول: إني كنت أعتقد أني أقوم بعمل جيد، حتى ولو أني لم أحب ما كنت أعملهبول أوساريس: نعم، نعم هذا صحيح، قلت ذلك عن اقتناع شديد، لقد صُدمت بتلك الجريمة، ومع أنها معزولة وظرفية، إلا أنها كانت مصحوبة بأعمال تفجير، صحيح لم تسفر تلك الأعمال عن ضحايا، ولكن ذلك كان وارداً، كان محتملاً.

سامي كليب: شعرنا في خلال قراءة مذكراتك سيد أوساريس أنك كنت تشعر ببعض اللذة بعمليات التعذيب وترك القتلى على الشارع هل بات هذا الشعور فعلاً سخيفاً إلى هذا النحو وفي حياتك الشخصية؟

بول أوساريس: لا. كلا كلا، أبداً.. أبداً كان همي الوحيد هو الوصول بأي وسيلة إلى المنظمة التي كانت وراء التفجيرات، والتي رافقت اعتداء ذلك العامل على زميله.

عمليات تعذيب المناضلين الجزائريين

سامي كليب: ولكن قرأنا أيضاً في مذكراتك الشخصية أن حتى السجناء في السجن كنتم تعذبونهم ويقتلون تحت التعذيب، ألم تكن هناك وسيلة أخرى لتفادي ذلك؟

بول أوساريس: نعم نعم، لا، نشاطي في فيليب فيل كانت تبرره المستجدات والوقائع، أقصد اعتداء العامل على زميله والتفجيرات التي تلت .. لذلك كان من واجبي الحصول على المعلومات، ثم العمل على استغلالها ولم يكن ذلك بالأمر الهين، خاصة مع الجزائريين لذلك يمكنني القول إنني لم أقم بأعمال تعذيب، حتى أحداث العشرين من آب-أغسطس.

سامي كليب: هل مات الكثيرون تحت التعذيب خلال عملك؟

بول أوساريس: كلا، كان هناك القليل.

سامي كليب: حتى أنت تقول في مذكراتك أن قلة من السجناء الذين كنا نسألهم ونحقق معهم في الليل يبقون على قيد الحياة في غداة ذلك الليل.
بول أوساريس: هذا صحيح، ولكن كانت هناك قلة منهم تحت إشرافي ومسؤوليتي.
سامي كليب: الآن مع الكشف عن.. عن أرشيف الجيش الفرنسي والمذكرات التي تصدر بعد 50 عاماً، نقرأ الكثير من عمليات اغتصاب نساء، هل كانت تحصل هذه العمليات تحت إشرافك أيضاً؟
بول أوساريس: لم تحصل أي عملية اغتصاب تحت مسؤوليتي الشخصية أو في إطار الوحدات التي عملت فيها سواء في فيليب فيل أو في الجزائر العاصمة.
سامي كليب: أثرت جدلاً كبيراً في فرنسا بكشفك معلومات تفيد أن الرئيس السابق (فرانسوا ميتيران) حين كان وزيراً للداخلية، وأيضاً وزيراً للعدل كان على علم بكل عمليات التعذيب يوماً بيوم، هل صحيح كان على علم بذلك؟
بول أوساريس: لن أغير شيئاً من أقوالي، لقد كان فرانسوا ميتيران على اطِّلاع يومي على ما يحدث على الأقل في مركز الجزائر العاصمة، وهنا أؤكد على أن ذلك كان يتم بشكل يومي.
سامي كليب: ما الدور الذي لعبه القاضي (بيرار) بينكم وبين ميتيران من أجل إعلامه بما يحصل؟
بول أوساريس: عندما قررت الحكومة الفرنسية في يناير - كانون الثاني عام 57 إصدار صلاحيات واسعة وخاصة للعسكريين في الجزائر من خلال تعيين (ماسيو) ووفر له الحاكم (لاكوست) جميع التسهيلات من أجل إنجاح عمله، ذلك أنه كان للكتيبة العاشرة للمظلِّيين دور أساسي في الحفاظ على الأمن.

سامي كليب: ولكن سيد أوساريس هل القاضي الذي ذكرناه القاضي بيرار كان أعلمكم بأن لديكم الضوء الأخضر لتصفية قادة جبهة التحرير والمناضلين آنذاك، وهل كان يعلن ميتيران يومياً؟

بول أوساريس: ليس الأمر كذلك بالنسبة لي، ولكن بإمكاني الجزم بأن السلطات الحكومية كانت على اطِّلاع دقيق ويومي على ما يجرى من قبل الجنرال (ماسيو) والحاكم لاكوست.

سامي كليب: طبعاً الآن من الصعب التحقق من هذه المعلومات، فرانسو مبتران قد توفي وكذلك القاضي بيرار ولكن نُشرت رسائل باسم الرئيس فرانسوا ميتيران التي يشجب فيها عمليات التعذيب، إذن هل كان على علم ونفى ذلك فيما بعد أم أنه لم يكن يعلم بكل ما يحصل؟

بول أوساريس: السيد ميتيران كان يُحاط علماً بشكل يومي بأحداث الليلة السابقة.

تفاصيل تصفية العربي بن مهيدي على يد أوساريس

سامي كليب: القضية الأخرى الكبيرة الأهمية في الواقع في الجزائر كانت كيفية قتل المناضل الجزائري الكبير العربي بن مهيدي في سجنه، وكنت أنت المشرف على الاعتقال والقتل أيضاً وقيل فيما بعد أنه انتحر، هل يمكن أن تخبرنا ما الذي حصل؟

بول أوساريس: أُلقي القبض على العربي بن مهيدي من قبل وحدات المظليين التي يشرف عليها الكولونيل (بيجار) بيجار هذا القائد المظلي الكبير الذي أعرفه جيداً، فقد تم إنزالنا معاً خلال المقاومة..

سامي كليب [مقاطعاً]: وهو الذي أوقفه..

بول أوساريس: تم إيقافه واعتبر أنه القائد الأول لجبهة التحرير الجزائرية، كما ألقى الجنرال بيجار القبض على العديد من الإرهابيين، ممن احترفوا العنف، وكان يعلم أن هؤلاء الصعاليك والمنحرفين قاموا بأعمال تفجير في أحد أحياء العاصمة الجزائرية، ومع ذلك فقد استفسرني عن مصيرهم، طبعاً لم يكن بالإمكان أن

أقدمهم للسلطات القضائية، تلك السلطات كانت عاجزة عن الحسم سريعاً بشأنهم لأنهم كثيرون، وبناء على ذلك فإن الحل كان في إعدامهم، ولكن الكولونيل بيجار رفض هذا الحل، وطلب مني استشارة الجنرال ماسيو، هذا الأخير أيضاً لم يكن على علم بالأمر، خلال المحادثة أقبل علينا (ماك سلوجان) كاتب الدولة لشؤون الحرب، أي الرجل الثاني إدارياً بعد وزير الدفاع، فتوجه له ماسيون بالحديث قائلاً: لست أدري ماذا سأفعل بهذه العصابة من القتلة؟ فرد عليه ماك سلوجان بالقول: اسمعني جيداً، عندما علمت الحكومة الفرنسية أن الرجل الأول في جبهة التحرير الجزائرية مع عدد من مساعديه في لجنة التنسيق والمتابعة في جبهة التحرير، عندما علمت بأنهم كانوا على أهبة الاستعداد للسفر، .. طائرة من المغرب إلى تونس كما ذكرت مع خمسة من مساعديه من لجنة التنسيق والمتابعة، إذن قررت الحكومة الفرنسية إرسال مقاتلاتها الحربية من أجل العمل على تفجير الطائرة التي كانت تُقِلُّ بن بيلا ومساعديه، وبالفعل فقد أُعطيت الأوامر لذلك، ولكن المعلومات التي وردت من المغرب أفادت..

سامي كليب: أن فريق الطائرة كان فرنسياً.

بول أوساريس: نعم، تراجعت إذن الحكومة الفرنسية عن قرار التفجير، بل أرغمت الطائرة على الهبوط في الجزائر وهذا ما تم فعلاً، وسُجن بن بيلا ومن معه من قياديي جبهة التحرير، ولذا أُسندت قيادة الجبهة إلى بن مهيدي وإلى أربعة من الأعضاء الآخرين في الجبهة، من الطبيعي أن الكولونيل بيجار كان يعلم أنه أُلقي القبض على الرجل الأول في جبهة التحرير بعد سجن بن بيلا وهنا تدخل ماسيو قائلاً لبيجار: لعلك فهمت الآن ماذا عليك أن تفعل به.

سامي كليب: وانتقل إذن بلميهدي إلى.. تحت إشرافك المباشر وقررت أن تقتله في السجن؟

بول أوساريس: نعم، ولكن انتظر قبل القرار بتصفيته كان علينا أن ننتهي من أمر 15 إرهابيا سجنهم بيجار، وكان ماسيون قد طلب من ماك سلوجان رأيه بشأن مصيرهم فرد لوجان بالقول: لو لم نرغم طاقم الطائرة التي تقل بن بيلا..
سامي كليب: كنا قتلنا بن بيلا.
بول أوساريس: نعم، كنا قتلنا جميع من في الطائرة، هل فهمت الآن؟ ثم استطرد لوجان قائلاً لماسيون: عليك أن تضع حداً لنشاط جبهة التحرير مهما كان الثمن. مهما كان الثمن هل فهمت؟
سامي كليب: إذن فهمتم من ماك سلوجان الذي كان وزيراً للحربية انه يمكنكم قتل بن بيلا.
بول أوساريس: بدأنا بتصفية كل الإرهابيين أما بن مهيدي فقد كان بيجار يعتزم الإبقاء عليه قيد الحياة على أن يقنعه بالتعاون مع فرنسا، وقد حضرت شخصياً حواراً طويلاً جمع بين بيجار وبلمهيدي، وكان بيجار يقول له أنت الآن معتقل وبإمكاننا أن نجد حلاً يرضي الجميع، وهنا أؤكد أن بيجار لم يلجأ أبداً إلى تعذيب بن مهيدي.
سامي كليب: وعبر الآخرين؟
بول أوساريس: سألني بيجار يوماً: ماذا عسانا أن نفعل به الآن وعلينا أن نُذكر هنا بأن تحركاً دولياً قد كان قيد الإعداد تحت إشراف الأمم المتحدة، وكان لاكوست يخشى محاكمة علنية لـ بملهيدي تأخذ أبعاد واسعة، ولذا.. لذا قرر بيجار التخلص من بن مهيدي خصوصاً وأن هذا الأخير قد مده بمعلومات كثيرة من دون تعذيب ومن دون قصد، للتباهي.. للتباهي، كان يقول نحن نملك كذا وكذا وأن الإمدادات كانت تأتينا من هذا البلد أو من ذاك.
سامي كليب: هل شعرت بأنه كان قوي الشخصية خلال التعذيب أو خلال المحاكمة؟

بول أوساريس: نعم، لكنه كان يتباهى قائلاً: أنتم محظوظون لأنكم تتفاوضون مع طرف قوي هو جبهة التحرير الوطني.
سامي كليب: إذن هنا اتخذتم القرار بتصفيته؟
بول أوساريس: كنت ألتقي بالقاضي بيرار يومياً، وكان يقول لي: صديقي العزيز تعلم أن كل القادة، قادة المصالح الخاصة والمخابرات يحملون شيئاً من السم يخبئونه جيداً تحت ثيابهم.
وبما أن بملهيدي هو أحد قادة جبهة التحرير الجزائرية فأنه كغيره من قادة المخابرات الفرنسيين والألمان والبريطانيين، يحمل بين طيات ثيابه سمًّا يتجرعه متى احتاج إلى ذلك.
هل فهمت مغزى كلامي؟
سامي كليب: إذن فهمتم أنه بإمكانكم قتل العربي بن مهيدي ثم إعطاء الانطباع بأنه قد انتحر؟
بول أوساريس: هذا صحيح، كان علينا أن نفعل ذلك، ولم يكن هناك مجال للاختيار.
سامي كليب: كيف حصل إذن، عملية القتل؟
بول أوساريس: لم نجد سماً، لم نجد أي سم.
سامي كليب: شنقته، كيف كانت ردة فعله قبيل أن تشنقه بيديك؟
بول أوساريس: لم يكن له أي رد فعل، ولم أطلب منه أنا أي تعليق.
سامي كليب: لم يقل شيئاً؟
بول أوساريس: آخر تصريح له كان خلال حواره مع بيجار، كان بيجار يقول له: لقد وشى بك رفاقك الأربعة في لجنة التنسيق والمتابعة، وما دفعهم إلى ذلك هو أنك عربي، أما هم فإنهم من القبائل، وبفضل وشايتهم هذه تمكنَّا من العثور على الشقة التي كنت تختبئ فيها.
سامي كليب: لم يكن ذلك صحيحاً.
بول أوساريس: طبعاً لم يكن ذلك صحيحا، لم يكن ذلك صحيحاً، بعد ما قال له بيجار ذلك رد عليه بملهيدي قائلاً: لا لم يشِ بي

رفاقي، وإذا كنتم قد تمكنتم من القبض علي فإن ذلك يعود إلى الحظ الذي كان بجانبكم، الحظ الذي كان حليفكم.
لم يكن تفسير بن مهيدي صحيحاً، لأنه كان ضحية وشاية.
سامي كليب: مَن كان؟
بول أوساريس: أحد العرب الأغنياء..
سامي كليب: كان ابن أحد الأغنياء واسمه بن تشيكو، هل شعر أنه سيموت شنقاً بين يديك؟
بول أوساريس: لا أعتقد ذلك.
سامي كليب: لماذا؟
بول أوساريس: من خلال تصرفاته، لقد أدرك ذلك في اللحظة الأخيرة.
سامي كليب: هل شعرت بالارتياح بعد قتله؟
بول أوساريس: نعم.. نعم.
سامي كليب: والمحامي أيضاً، المحامي المناضل علي بومنجل أيضاً قتلته.
بول أوساريس: نعم، ، لقد كان يلعب المحامي بومنجل دوراً مهماً جداً داخل جبهة التحرير الجزائرية، دوراً مهماً من خلال اتصالاته الواسعة والمستمرة مع الحكومات الأجنبية، وقد كان بمثابة وزير للخارجية.
سامي كليب: كيف حصل ذلك؟
بول أوساريس: لا أرغب بالحديث عن الأمر.
سامي كليب: حين طرحت عليك السؤال حول بن مهيدي أجبت بالتفصيل، لكن حول بومنجل لا تريد الإجابة؟ ما الذي يمنعك؟
بول أوساريس: قلت من الصعب علي الحديث بشأن وفاة بومنجل، لأني الآن ملاحق قضائياً، كما أن بعض خصومنا القدامي يعملون على إدراج نشاط أجهزة الأمن في الجزائر ومن ضمنها مقتل علي بومنجل، ضمن لائحة جرائم الحرب، هذا ما كان يتمناه أعداؤنا،

أما السؤال لماذا قُتل على بومنجل خلال حرب الجزائر العاصمة؟ طبعاً لن أعيد سر ما قلته بشأن بن مهيدي، ولكن أُذكِّر فقط بأن حادثة توقيف علي بومنجل كانت حادثة معروفة من قبل الجميع، ومع أن علي بومنجل لم يكن يحتل مركزاً مهماً داخل الجبهة جبهة التحرير الوطني، ومثلما كان الحال بالنسبة لبلمهيدي، ولكنه كان يقوم بدور أساسي داخل الجبهة، كان له دور أساسي، إذ أنه كان يعتبر بمثابة وزير للخارجية داخل جبهة التحرير الوطني الجزائرية، ذلك كان يُشكِّل القبض عليه حدثاً مهماً لا بل بالغ الأهمية بالنسبة إلينا وبالفعل لقد حققنا نقطة إضافية لمصلحتنا من خلال القبض عليه، إنه كان شخصية أساسية من جبهة التحرير.

سامي كليب: الرئيس الفرنسي (جاك شيراك) كان بعث لك في السابق برسالة شكر، وربما رسالة تعاطف أيضاً في إحدى مراحل حياتك، ثم كان في طليعة من اتخذ قرارات ضدك بعد نشر الكتاب، ما الذي غيَّر رأيه؟

بول أوساريس: بالضبط، لقد أرسل إليَّ الرئيس (جاك شيراك) مكتوباً عندما كان حينها رئيساً لبلدية باريس أو وزيراً، لقد أرسل الرسالة للتعبير عن تهانيه بمناسبة حلول السنة الميلادية، آنذاك لم أكن معروفاً إعلامياً، كنت معروفاً كمسؤول عن جميعة قدماء المحاربين المناضلين.

سامي كليب: إذن لم يكن يعرف ما الذي كنت تفعله في الجزائر من عمليات تعذيب؟

بول أوساريس: لقد كان الجميع يعلم.

أكثر الصور سوداوية من حرب الجزائر في نظر أوساريس

سامي كليب: ما هي الصورة الأكثر سوداوية التي حفظتها عن معركة الجزائر؟

بول أوساريس: إنه مشهد الموتى خلال عمليات تفجير، مثل تفجير الملعب الكبير أو الاستاد، لا أذكر تحديداً أمثلة أخرى، لا أذكر،

ولكنها عمليات لم تنقطع أبداً خلال حرب الجزائر العاصمة، وقد أحدثت ضجيجاً كبيراً.

سامي كليب: ومن الجهة الجزائرية جهة ضحاياكم، هل حفظت بعض الصور المأساوية؟

بول أوساريس: صور مؤلمة؟ نعم أتذكر مشاهد مؤلمة من أحداث منجم فيليب فيل من بين الأطفال الموتى.

سامي كليب: مثلاً.

بول أوساريس: نعم، أطفال موتى.

موقف أوساريس من أحداث الجزائر بين الماضي والحاضر

سامي كليب: دائماً حين تتحدث عن الجزائريين، في الواقع تتحدث عن ضحاياكم أنتم، ولكن ألا تعتقد أنكم أنتم أيضاً قمتم بجرائم فظيعة ضد الجزائريين؟

بول أوساريس: لا، فيما يعنيني أنا لم أقم بأي أعمال تعذيب ضد الجزائريين، كل ما قمت به من أعمال كان يندرج في إطار حصري للبحث عن المعلومات.

سامي كليب: ولكن تصفية السجناء في السجون، ألم يكن أيضاً فعلاً شنيعاً من قِبَلِكم؟

بول أوساريس: السجناء الذين قُتلوا في سجنهم لم يكونوا سجناء بالمعنى الذي نصت عليه اتفاقية جنيف، بل كانوا في الحقيقة مجرمين.

سامي كليب: تستخدم الآن عبارة مجرمين عن مناضلي الجزائر، هل الآن مع الوقت فهمت أنهم كانوا يقاتلون من أجل استقلال بلادهم وأنهم ليسوا مجرمين؟

بول أوساريس: بالنسبة إلينا لم يكن هؤلاء سوى مجموعة من المجرمين، لأن ضحاياهم من الأبرياء من الأطفال، من النساء، ومن الشيوخ.

سامي كليب: لماذا لم تفهم الآن معركتهم ونضالهم مع الوقت؟

بول أوساريس: أنا لست مقتنعاً بأولئك، أنا أتفهم عمل الجيش على الساحة كنشاط جيش التحرير الجزائري، ولكنني لا أفهم الغاية من استهداف العُزل ومن عمليات التفجير.
سامي كليب: ولكن الآن مع الوقت سياسياً هل لازلت مع الجزائر الفرنسية؟
بول أوساريس: أفهم جيداً سبب إصرار الكثير من الفرنسيين آنذاك على اعتبار الجزائر فرنسية.
سامي كليب: ولكن الآن.. ولكن أنت بالنسبة لك هل الآن..؟
بول أوساريس: لا أعتقد أنه كان بالإمكان أن تنال الجزائر الاستقلال، وتبقى شديدة الارتباط بفرنسا.
سامي كليب: حتى الآن؟
سامي كليب: سنطوي صفحة الجزائر بما .بول أوساريس: نعم، الآن فيها من رعب حتى الآن، ولكن أود أن أسألك عن بعض علاقاتك العربية مثلا العلاقة مع الجنرال عون الذي يعيش في فرنسا الآن هل عملت لأجله، وما هي علاقتك به؟
بول أوساريس: أجل لي علاقة بالِجنرال ميشيل عون من خلال عملي في إطار شركة ماتومسون..
بول أوساريس: نعم.سامي كليب: للسلاح.
سامي كليب: أي نوع من أنواع السلاح؟بول أوساريس: تقنية.. تقنية.
سامي كليب: هل كان بحاجة لهذه العلاقة العسكرية وهو في فرنسا؟
بول أوساريس: نعم، الجنرال ميشيل عون كان لا يزال من أهم القادة العسكريين في لبنان.
سامي كليب: في لبنان؟بول أوساريس: في لبنان، ولكنني تمكنت من مساعدته من خلال أعمال قمت بها هنا، فالجنرال عون كان يتنقل بين لبنان وفرنسا، وكان يواجه بعض في الأحيان مشاكل عسكرية

تقنية، وبما أنه كان يتعاون مع شركتي فإنني كنت سعيداً بتقديم النصائح الاستشارية لمساعديه بشأن بعض المصاعب التقنية.
سامي كليب: دائماً في هذا المجال.. المجال العسكري ماتومسون هل عملت مع دول عربية كالعراق مثلاً أو الإمارات أو الخليج؟
بول أوساريس: نعم، عملت مع دول عربية كالعراق.
أسباب قرار أوساريس بالكتابة عن الماضي
سامي كليب: أود أن نختتم هذه المقابلة بسؤال طُرح عليك لا شك مراراً: لماذا قررت الآن الحديث عن تلك الفترة المؤلمة بعد أربعين عاماً من الصمت؟
بول أوساريس: لقد اضطررت للكتابة عن هذا الموضوع، وتحديداً ما دفعني إلى ذلك بكل بساطة هو زيارة الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة إلى فرنسا عام 2000 مما أعاد إلى الواجهة أحداث حرب الجزائر، لقد شدد الرئيس الجزائري على نشاط الجيش الفرنسي في الجزائر، وتحديداً على أعمال التعذيب خلال حرب الجزائر العاصمة، ولذلك..
سامي كليب: ألا تعتقد أنه يحق للجزائريين أن يطالبوا الآن بمحاكمتكم؟
بول أوساريس: لا.. لا أعتقد ذلك، فأنا شخصياً ومن وجهة نظري أرى أن ما قمت به كان دفاعاً عن النفس، وإن عملي كان يهدف إلى التصدي للتهديدات الإرهابية ضد المواطنين الفرنسيين والمسلمين في الجزائر ومن أجل حمايتهم، فلم يكن هناك من داع مثلاً للتدخل خلال معارك (فيليب فيل)، لو لم تحدث المجازر العالية، وفي العاصمة مثلاً أذكر التفجيرات التي حصلت في الملعب الكبير في الاستاد، وبناء عليه فإن المسؤول عن كل ذلك هي جبهة التحرير الجزائرية، لذلك كان من الواجب.. من واجب السلطات الفرنسية في الجزائر أن تضع حداً لنشاط هذه المنظمات، كان على.. على

الحكومة الفرنسية أن تقوم بذلك، وأن تضع حداً لنشاط هذه المنظمات.

سامي كليب: ولكن فرنسا التي كانت تحتل الجزائر، وكان يحق لهؤلاء أن يدافعوا عن بلدهم ويحرروها أيضاً.

بول أوساريس: نعم، ولكن بالنسبة إلي ولكثير من الفرنسيين كان الوجود الفرنسي في الجزائر أمراً واقعاً لا ينكره الفرنسيون.

سامي كليب: هل تأسف على شيء من تلك الحقبة اليوم مع.. مع الوقت؟

بول أوساريس: أي نعم، أنا متأسف، لأنني كنت مرغماً على المشاركة في هذه الأعمال ولكن هذا ما حصل.

سامي كليب: نادم لا شك، فالضمير لابد وأن يصحو يوماً حتى ولو متأخراً، ولكن ماذا عن كل الذين منحوه هذه الأوسمة، متى يحاكمهم التاريخ؟ بل هل سيحاكمهم يوماً؟



ملحق 1

مقتطفات من مذكرات أوساريس حول التعذيب في الجزائر.. والحق ماشهدت به الأعداء.

شهادة

كان خيرا لها، في الجزائر رسالة إلى الذين يعتقدون أن بقاء فرنسا رغم تفوه الكثيرين منهم بذلك وهم في فورة الغضب .. إلى الناقمين على إخوانهم .. إلى الناسين والمتناسين .. إلى الذين صاحوا ذات بأعين مرة " التاريخ في المزبلة " .. إلى مناصري تاريخ الجزائر فرنسية كولونيالية .. إلى كل هؤلاء مقتطفات من أعمال السفاح " بول أوساريس " سواء قرأها من قبل فندعوه لإعادة قراءتها، أو لم يقرأها. لنستضيفه في هذه الصفحة التي تعتصر ألما لما حملته في ثنايا أحرفها من حقد وغل وبشاعة .. لنوحد مشاعرنا في هذا اليوم المبارك ونحول فورة غضبنا جميعا إلى سبيلها وهدفها الأليق بها .. نحو فرنسا الاستعمارية وبقايا فكر فرنسا الاستعمارية .. كي لا ننسى...

أعمال يمليها الضمير وطبيعة المهمة

يقول الجنرال أوساريس: " إن العمل الذي قمت به في الجزائر كان من أجل بلادي، معتقدا في ذلك أنني أحسن صُنعا، وإن كنت لم أرد

أن أقوم به، وذلك أن ما نقوم به ونحن نعتقد أننا نؤدي من خلاله واجبنا لا يمكن لنا أن نندم عليه".

ويصف عمله كضابط استخبارات

وهكذا صرت ضابط استعلامات... يُكلّف ضابط الاستعلامات في " أيام الحروب، أساسا، بجمع الوثائق والمعلومات اللازمة التي تعين على بناء العمليات الميدانية، هذه المعلومات تتعلق بأرضية القتال وبالخصم كذلك، غير أنّ أعمالا مثل هذه لا تلقى احتراما أو تقديرا عند العسكريين. ولكي يتسنى القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، كان ذلك يتطلب ذهنية خاصة يمكن لها أن تتحمل الأذى الناجم عن تهكم الآخرين... وأدركت من ثمّ أن إيفادي إلى الجزائر لم يكن مجرد هدية كان يمكن أن تُقدّم ليس . وفي بدايات عمله الأولى بمنطقة سكيكدة يقول: " وفي ظرف أسابيع معدودة ازدادت حركة التمرد ثباتا وصلابة، وبدأ حينها ـ العد التنازلي، وكان دوري يحتم علي أن أكون أكثر هجوميا" ويدافع عن أمثاله بالقول: " لقد كانت شرطة سكيكدة تمارس التعذيب، مثل باقي الشرطة في كل أنحاء الجزائر، وكان مسؤولوهم على دراية تامة بذلك. لم يكن أولئك الشرطيون جلادين أو وحوشا، ولكنهم كانوا أناسا عاديين، كانوا أناسا مخلصين لوطنهم، وكانت روح الواجب متغلغلة في أعمق أعماقهم"

الغاية تبرر الوسيلة

إنّ التخلص من جبهة التحرير كان يعني وجود إرادة سياسية فعلية لذلك، ولكنه كان يعني كذلك استعمال كل الوسائل الملائمة... كان عليّ أن أتعرف على زعماء جبهة التحرير وأحدد مواقعهم ليتمّ القضاء عليهم في سرية وصمت، وكنت أعتقد أن الحصول على معلومات حول هؤلاء الزعماء سيقودني حتما إلى إلقاء القبض على متمردين واللجوء إلى استنطاقهم... ونظرا للمهنة التي اخترتها، قمت بقتل بعض الأشخاص، وفعلت أشياء ترهق الأعصاب، غير

أني لم أكن أظن أني سألجأ يوما ما إلى التعذيب. كان في تصوري أنه يمكن أن أتعرض أنا شخصيا إلى التعذيب، ولكنني لم أتصور الواقعة بالعكس: أن أقوم أنا بتعذيب الآخرين.

وصفة من وصفات التعذيب

بعد إلقاء القبض على بعض المتعاطفين مع الثورة التحريرية والمساندين لها بشتى الوسائل يتحدث أوساريس عن عملية روتينية غالبا ما يقوم بها قائلا: "... وجاء موعد استنطاقهم. كنت أبدأ بسؤالهم عما يعرفونه، غير أنهم أفهموني أنهم لا يريدون البوح بأي شيء.. ألا تكون ردة فعل المتهم دائما الإنكار أو لزوم الصمت؟. وهكذا، وبدون وازع من الضمير، أوضح لي رجال الشرطة تقنية الاستنطاقات " الخشنة ". بداية، كان هناك الضرب الذي كان يكفي في الغالب، ثم بعد ذلك تأتي الوسائل الأخرى كالكهرباء والماء. كان التعذيب بالكهرباء يتم عن طريق مولّدات كهربائية تستعمل في الأرياف من أجل شحن أجهزة اللاسلكي، وكانت هذه المولّدات كثيرة الانتشار. وكان التعذيب يتم عن طريق صعق الأذنين أو الخصيتين، وبعدها يطلق التيار بتركيز مختلف. وكما يظهر، فإنّها طريقة قديمة، وأنا أعتقد أن شرطة سكيكدة لم تخترع شيئا في هذا المجال... هذه المرة وبمساعدة الشرطة، كنت أجدني منساقا إلى المشاركة أكثر فأكثر في هذه الاستنطاقات " الخشنة "...إنّ مهمتنا تفرض علينا الوصول إلى نتائج يكون التعذيب غالبا جسرا مؤديا إليها، بل وحتى القتل، وأظن أن كل هذا ليس سوى البداية فقط"

اغتيال العربي بن مهيدي

بعد عدة محاولات فاشلة لجعله يتعاون مع المستعمر بعد القبض عليه، واستبعاد خيار تمريره للعدالة نظرا للصدى المتوقع إزاء التضامن معه ومع قضيته، قرر الجلادون إعدامه على يد أوساريس، وتغليط الرأي العام آنذاك بأنه انتحر، وفي ذلك يقول:

"...لم يخن (بن مهيدي) رفقاءه...أنا هو الذي تسلّم بن مهيدي ليلة بعد ذلك في (الأبيار)... ووصلت بسيارات (جيب) وشاحنة وبرفقتي بضعة عشر رجلا من فريقي الأول وهم مدججون بالسلاح. وكان النقيب (ألير) هو المداوم حينها... وطلبت منه إحضار (بن مهيدي) وتسليمه لي... وأدخلناه الشاحنة، وتوجهنا بسرعة مُفرطة لأن كمينا تحضره جبهة التحرير لتحريره كان جدّ محتمل. وقدَّمتُ تعليمات صارمة إلى ضابط الصف المكلف بحراسة زعيم جبهة التحرير الوطني، وقلت له: إذا تعرّضنا لهجوم مّا، فاقض عليه مباشرة حتى وإن خرجنا سالمين، أطلق عليه النار ولا تتردّد. وتوقّفنا في مزرعة منعزلة كانت وحدتي تقيم فيها على بعد بضع وعشرين كيلومترا جنوب العاصمة، يسار الطريق.
وكانت تلك المزرعة إعارة من طرف أحد الأقدام السوداء، وهي تحوي بناية متواضعة لا تتجاوز الطابق الأرضي، وكان فريقي الثاني ينتظرني هناك. كانت الوحدة الأولى للمظليين تحوي بضعا وعشرين رجلا، وكان بعضهم ممن يؤدون الخدمة العسكرية، ولكنهم كانوا أهلا للثقة، وكان النقيب (ألير) المدعو (تاتاف) هو المسؤول عنهم، وكان جد مخلص وشرحت له ما الذي سيجري.
وأخبرته بأنه يجب على رجاله تهيئة مكان من أجل (بن مهيدي)، وذلك أن المزرعة ليست مهيأة لذلك، فهي تحتاج إلى تنظيف ونقل لأكوام التبن الموجودة هناك. وفي نفس الوقت، قمنا بعزل السجين في غرفة مهيأة سلفا، وكان أحد رجالي يقف قبالة بابها. وبمجرد إدخال (بن مهيدي) إلى الغرفة، قمنا بتقييده وشنقه، بطريقة تفتح المجال لاحتمال حدوث عملية انتحار. وعندما تأكّدت من موته، قمت بإنزاله ونقله إلى المستشفى...وكنا في منتصف الليل تقريبا.
وناديت مباشرة بعدها الجنرال (ماسو)، وقلت له: حضرة الجنرال، إن (بن مهيدي) أقدم على الانتحار، وجثته موجودة بالمستشفى، وسأقدم لك تقريرا غدا صباحا..لقد كان يعلم أن تقريري كان جاهزا

منذ الزوال، كي أربح بعضا من الوقت. وكان القاضي (بيرار) أول من قرأ هذا التقرير، وهو يصف بدقة كل تفاصيل الانتحار الذي سيقع في الليلة القادمة... وقمنا باستعمال المزرعة التي أُعدم فيها (بن مهيدي) مرات أخرى، وطلبت من بعض رجال الوحدة حفر "حفرة كبيرة، وتم دفن أكثر من عشرين جثة فيها

تصفية المحامي الأستاذ بومنجل

نفس السيناريو استعمله أوساريس مع بومنجل لكن بإخراج مختلف فقط: " التفت (ماسو) إليّ وصوّب عينيه نحو عينيّ وقال بحزم: (أوساريس)، ممنوع أن يهرب السجين.. مفهوم؟ وعند سماعي هذه الكلمات، توجهت مباشرة إلى الأبيار في نهج (كليمونصو)، أين كان (بومنجل) موقوفا. في منطقة مليئة بالمباني، كان بعضها متصلا ببعض بواسطة جسور صغيرة في سطوح الطابق السادس، وكانت زنزانة (بومنجل) متواجدة في الطابق الأرضي. وتوجهت نحو مكتب الملازم (د) الذي بدا مندهشا حين رآني، ثم قال لي: ما الذي يمكن أن أفعله لك حضرة القائد؟ لقد كنت في اجتماع مطوّل مع الجنرال (ماسو)، وحسب ظني عند الخروج من هذا الاجتماع، فإنه يجب أن لا ندع بومنجل في هذه البناية التي يوجد بها حاليا. ولماذا؟ لعدة أسباب.. يمكنه أن يهرب مثلا، فكّر قليلا.. إن (ماسو) سيكون غاضبا إذا حدث ذلك وأين يجب أن نضعه إذاً؟ لقد فكرتُ في ذلك جيدا، وأرى أنه من الأحسن أن يحوّل إلى المبنى المجاور، ولكن احذر.. يجب أن لا تمر عبر الطابق الأرضي لأن هذا سوف يجلب الأنظار. وجحظت عينا (د) الذي لم يفهم قصدي، وإن بدأ دون شك في استشفافه، وقال: حضرة القائد، قل لي بالتفصيل ماذا عليّ فعله؟ إن هذا شيء بسيط، قم بإحضار سجينك، ولكي يتم تحويله إلى المبنى المجاور عليك اجتياز الجسر المتواجد في الطابق السادس، وأنا سأنتظر في الأسفل إلى حين فراغك من التحويل، هل

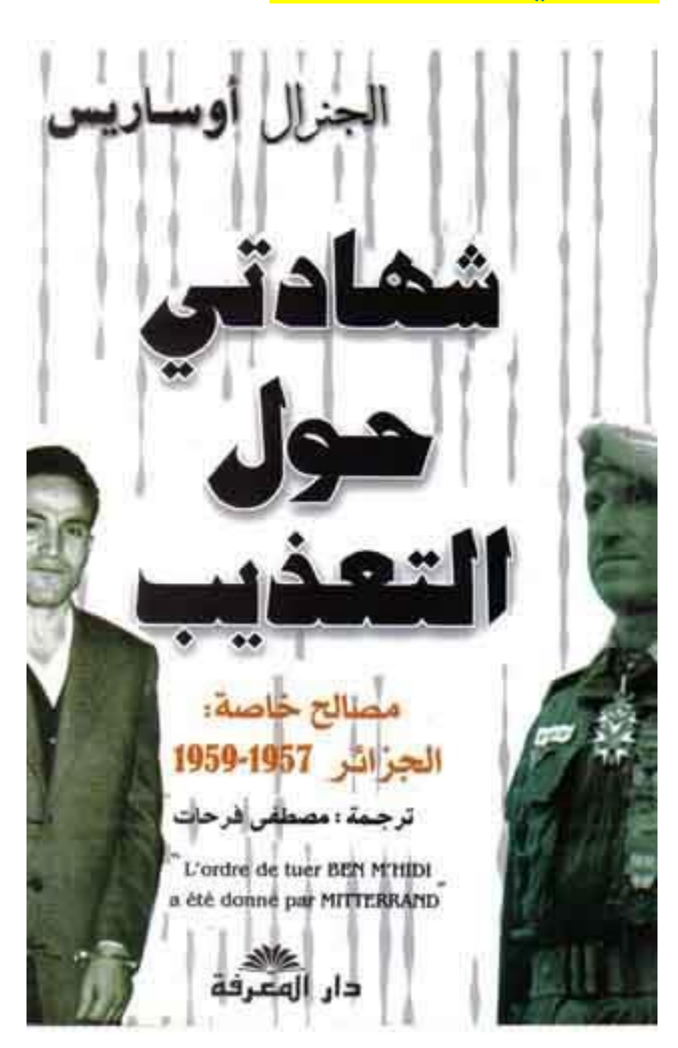
فهمتني الآن؟ وهزّ الملازم (د) رأسه دليلا على الاستيعاب. وبعد فترة، رجع (د) لاهثا ليخبرني بأن (بومنجل) سقط من الطابق السادس، وقبل أن يرميه من أعلى الجسر، قام بصرعه بضربة مقبض قادوم وجهها صوب قفاه. وقفزت إلى سيارة (جيب) ورجعت إلى (ماسو) والآخرين الذين كانوا لا يزالون مستغرقين في حديثهم. وقلت: حضرة الجنرال، لقد قلت لي بأنه لا يجب ل (بومنجل) أن يهرب، اطمئن إذاً فإنه لن يهرب لأنه ببساطة انتحر...وقررت نتائج تشريح جثة (بومنجل) أنه مات بسبب السحق، وأن جسده لم يحو أي دليل على استعمال العنف ضده، ولم توجه إليّ أي تهمة قط، وأقر (د) الرواية الرسمية التي تخلُص إلى الانتحار غير المفسَّر للمحامي الجزائري" .

المصدر: بول أوساريس، شهادتي حول التعذيب: مصالح خاصة 1957 - 1959, ترجمة: مصطفى فرحات، دار المعرفة الجزائر،2005.

ملحق 2

صور أخرى من كتاب :

شهادتي حول التعذيب



سكيكدة (1955)

عند نزولي من المرفأ، وجدت سيارة عسكرية من نوع (جيب) في انتظاري كي توصلني إلى مقر الكتيبة التي اتخذت أحد المنازل مقرا لها على بعد حوالي خمسمائة متر من الميناء، أما باقي الوحدة فقد كان متفرقا ما بين المدينة وقرب أرضية الطيران، وهي أرضية أنشئت فيها مدرسة للقفز بالمظلات.

ولمّا قدّمت نفسي، استقبلني العقيد الأنيق (كوكبورن) قائد الوحدة بلباقة بريطانية، وبعدما استمع إليّ وهو يبتسم - كان ذلك ولا شك من أجل لهجتي البدوية - انتقل مباشرة إلى صلب الموضوع، فقال:

- من حسن الحظ أنك قدمت من المصالح الخاصة، فأنا في حاجة إلى خبير في الاستعلامات.

- وأنا جدُّ مسرور بهذه المصادفة، غير أنّه هناك مشكلة.

- وما هي؟

- لعلهم أخطئوا في إبلاغك، وذلك لأنني لست مختصا في الاستعلامات، ولكني قدمت من مصلحة العمليات الخاصة.

- أنا على اطّلاع جيد بطبيعة عملك الجديد، وإذا كانت العمليات الخاصة بُغيتك، فسوف تجد ضالتك هنا. ينبغي أن لا تنخدع بهدوء المدينة، فضواحيها تشهد اضطرابات كثيرة، حتى إني أرسلت جنودي في مهمات هناك.

- أين هم حضرة العقيد؟

- هناك فرقة في الأوراس، بينما توجد فرقة أخرى قرب الحدود التونسية.

وعلمت حينها أن وحدات الكتيبة كانت تشارك بانتظام في عمليات عسكرية ضد المتمردين الذين يهاجمون القرى والمزارع النائية، فيسرقون ويقتلون المستوطنين من "الأقدام السوداء".

وهكذا صرت ضابط استعلامات.

إنّ هذا النوع من العمل لا يمكن أن يكون له وجود إذا توفر الأمن والسلم، ورغم أهميته في الظروف التي تعرفها البلاد، لم يكلف أحد نفسه عناء تشكيله، ولهذا كان عليّ أن أعيد إنشاءه، وانطلاقا من الصفر، لأن العقيد لم يزودني لا بتعليمات ولا حتى بأرشيف.

يُكلّف ضابط الاستعلامات في أيام الحروب، أساسا، بجمع الوثائق والمعلومات اللازمة التي تُعين على بناء العمليات الميدانية، هذه المعلومات تتعلق بأرضية القتال وبالخصم كذلك، غير أنّ أعمالا مثل هذه لا تلقى احتراما أو تقديرا عند العسكريين. ولكي يتسنى القيام بهذه المهمة على أحسن وجه، كان ذلك يتطلب ذهنية خاصة يمكن لها أن تتحمل الأذى الناجم عن تهكم الآخرين.

ثم إن نجاح عمل ضابط الاستعلامات مرهون بقيمة المُشرف عليه ومدى الاهتمام الذي يوليه لمجال الاستعلامات، غير أنه نادرا ما يهتم القواد العسكريون بهذا المجال.

وأدركت من ثمّ أن إيفادي إلى الجزائر لم يكن مجرد هدية كان يمكن أن تُقدّم لي.

وقادني سائق السيارة بعد ذلك إلى شقتي المجهزة.

كانت سكيكدة مدينة صغيرة يقطن بها 21 ألف نسمة، وتمكنت بسرعة من معرفة جميع الناس.

وبدأ كل شيء بالعلاقات الاجتماعية على طريقة الأرياف، حيث كنت أُعزم للغداء وفي الحفلات، أين كانت هذه الإقامة تحت الشمس الإفريقية الملهبة تظهر بمظهر الريف.

وكنت أملك بعض الوقت خارج ساعات العمل لكي أتجوّل على الشاطئ وأقرأ وأسمع الراديو، بل وأذهب أحيانا إلى السينما. وبعد بضعة أسابيع، ظهر جليا أن عملي لم يكن قط للراحة والاستجمام، حيث بدأت أوقات التسلية تتناقص شيئا فشيئا لتفسح المجال أمام العمل المُضني.

لقد كان عملي واضحا من حيث المبدأ، غير أنه كان جد معقّد بالنظر إلى الوسائل المتاحة لي، كان يجب عليّ أن أجمع كل المعلومات المتعلقة بالتمرد والمتمردين، سواء كانت هذه المعلومات واردة من العسكريين أو من المدنيين.

وهناك طريقتان يمكن من خلالهما الحصول على المعلومات: أن تنتظر قدومها إليك أو أن تذهب أنت للبحث عنها.

وفي ظرف أسابيع معدودة، ازدادت حركة التمرد ثباتا وصلابة، وبدأ - حينها - العد التنازلي، وكان دوري يحتّم عليّ أن أكون أكثر هجوميا.

تمّت الإطاحة في فرنسا بحكومة (بيير منديس فرانس)، وكان الوافد الجديد (إيدغار فور) يأمل تسوية الملفات المختلفة في المغرب الكبير في أقرب الآجال، ولهذا قررت باريس التخلص من جبهة التحرير في أسرع وقت ممكن، حيث انضافت الاعتبارات السياسية إلى تزايد الاهتمام العالمي بالقضية الجزائرية.

إنّ التخلص من جبهة التحرير كان يعني وجود إرادة سياسية فعلية لذلك، ولكنه كان يعني كذلك استعمال كل الوسائل الملائمة.

لم تكن الشرطة مهيأة لمثل هذا النوع من المهمات، ولم تكن حتى الإطارات العسكرية مدربة أيضا على هذا النوع من الحرب، أين نجد جيشا كلاسيكيا يجابه ويواجه حركة تمرد مصدر نموها وبقائها متعلق بمدى اختلاطها بالمدنيين وإقحامهم في كفاحها عن طريق الدعاية والإرهاب والتخويف، ولهذا بدأت الحكومة في إرسال من يقوم بالتطهير، وكنت - دون شك - أحدهم.

كان يجب عليّ أن أتعرف على زعماء جبهة التحرير وأحدد مواقعهم ليتمّ القضاء عليهم في سرية وصمت، وكنت أعتقد أن الحصول على معلومات حول هؤلاء الزعماء كان سيقودني حتما إلى إلقاء القبض على متمردين واللجوء إلى استنطاقهم.

كانت سكيكدة تقع في الشمال القسنطيني، وهي المنطقة التي كانت جبهة التحرير فيها آنذاك أكثر وأحسن تموقعا، وإذا كان هناك تصاعد في وتيرة العنف في الجزائر، كان يمكن تحديد أن منطلق ذلك هو هذه المنطقة بسهولة.

لم يبق إلاّ أن أعرف أين، متى وكيف.. وكانت هذه هي طبيعة عملي.

من أجل مباشرة هذا العمل كنت محتاجا إلى فريق، وسرعان ما وضع العقيد ضابطيه تحت تصرفي، من بينهم رقيب يدعى (كمال إيصولح) وعريف أول يُدعى (بيير ميزيري).

كان (إيصولح) ينتمي لعائلة كانت ضمن أفراد الجيش الانكشاري التركي المتواجدة بمنطقة القبائل تحت إشراف السلطان، وكان دورهم هو القيام بحفظ الأمن مقابل الحصول على مزايا وأراضي.

والتحقت هذه العائلة الميسورة بالجانب الفرنسي بعد غزو الجزائر سنة 1830، بل إنّها أمدت الجيش الفرنسي بعدة إطارات، آخرها كان والد كمال الذي أنهى حياته قائدا في الجيش. أما كمال، فإنّه التحق بالجيش وعمره ثماني عشرة سنة بعدما تلقى تحضيره العسكري ليصبح عريفا أول، وشارك في حرب الهند الصينية كقنّاص، وأبيدت الكتيبة التي كان ينتمي إليها، وكان كمال أحد الناجين القليلين من أفرادها. وبعد ذلك تطوع ليعاد دمجه ضمن وحدات المظليين، ثمّ حُوّل إلى الوحدة الأولى للمظليين وعيّن رقيبا. لقد كان باهرا لمعرفته بكل اللهجات العامية العربية والبربرية المُتكلّم بها في العالم الإسلامي. وإلى تلك الساعة، لم يُستعمل هذا العنصر الثمين وفق قيمته الحقيقية، حتى أن العقيد كلفه بالإشراف على مصلحة البريد في الجيش، وفي ظنّه أنّه لا يمكنه الهرب بالمال الخاص بالحوالات بما أنه كان غنيا.

أما (بيير ميزيري)، فإنّه كان ينحدر من عائلة فرنسية تقطن بتونس، ولهذا تمكن من تعلم عربية شمال إفريقيا بإتقان، وكان هو الآخر قد التحق بالجيش وعمره 18سنة وشارك في حرب الهند الصينية بصفته مظليا.

مع هذين الشابين الحيويين، شعرت منذ البداية بالثقة وشرعت في إنشاء شبكتي الخاصة بالمعلومات، وقمت بزيارة كل الأشخاص الذين ظهر لي أنهم يمكن أن يكونوا أعوانا، وكان أولهم النقيب (باستوي) المكلف بالحفلات العسكرية، وهو أحد الجنود المظليين القدماء، حيث أخبرني أنّه يكتب تقريرا كل ثلاثة أشهر وفق ما يمليه عليه منصبه، وكانت مصالح الاستعلامات العامة تُمدُّ له يد المساعدة.

لم أكن قد تعاملت قطُّ مع أجهزة الشرطة، ولعل هذا هو الشيء الذي جعلني لا أحسن التمييز بين مختلف مصالحها، وبفضل تعليمات (باستوي)، استطعت أن أفهم بسرعة أنّ "المعلومات العامة" هي جهاز الاستعلامات التابع للمحافظة، وهكذا اتصلت بالمفوض (آرناسان) الذي كان مسؤولا عن هذه المصلحة، ونصحني بأن أقابل معاونَيْه: المفوض (بورج) رئيس الشرطة القضائية، والمفوض المركزي (ألكسندر فيليبرتي) المكلف بالأمن الحضري.

وربطتُ مع الجميع علاقات حميمية، وأصبحوا من حينها أصدقاء لي.

و لم أنس جهاز الدرك كذلك، وكانت المصلحة التي عقدت معها العلاقات الأكثر ربحا ومغنما دورية أبحاث يقودها الماريشال (بوزوني)، وهو لم يكن على وفاق مع قائدهإلاّ أنّه كان يحسن اتخاذ الإجراءات ابتداء.

وعندما كسبت ثقة الجميع، أوضح لي الشرطيون دون تحوير أو لف الحالة المعقدة التي يواجهونها، وكذا التهديدات بالعمليات الإجرامية التي كانت تخيّم على المدينة، إضافة إلى ذلك طريقة العمل التي كانوا يلجأون إليها مقارنة بالإمكانيات القليلة المتوفرة في أيديهم.

لقد أفهموني بسرعة أن أحسن طريقة لاستنطاق إرهابي يرفض الاعتراف هي اللجوء إلى التعذيب. كانوا يتكلمون بصوت منخفض - ولكن دون حياء - حول هذه الأعمال التي كان الجميع في باريس يعرفون أنها تُستعمل، والتي شرعت بعض الصحف الفرنسية في التكلم عنها قبل وصولي إلى سكيكدة.

لقد كنت ألجأ إلى استنطاق السجناء ولكني لم أعذب أحدا من قبل، وكنت أسمع أن طرقا من ذلك النوع قد استعملت في الهند الصينية، ولكن لظروف خاصة، غير أن كتيبتي لم تكن تلجأ لهذا النوع من الأعمال، ولم تكن أغلب الوحدات المشاركة في حرب الجزائر إلى حينها قد واجهت هذا النوع من المشاكل.

ونظرا للمهنة التي اخترتها، قمت بقتل بعض الأشخاص، وفعلت أشياء ترهق الأعصاب، غير أني لم أكن أظن أني سألجأ يوما ما إلى التعذيب. كان في تصوري أنه يمكن أن أتعرض أنا شخصيا إلى التعذيب، ولكنني لم أتصور الواقعة بالعكس: أن أقوم أنا بتعذيب الآخرين.

بعد فترة وجيزة من انضمامي إلى المصالح السرية، وجدت نفسي في المغرب سنة 1942، قبالة ضابط طيار تابع للأمن العسكري يُدعى القائد (دالما)، والذي رأى من الضرورة تنبيهي قائلا:

– هل تعلم ما ستواجهه، على الأقل بدخولك في المصالح الخاصة؟

– نعم حضرة القائد، أنا أُعرِّض نفسي للقتل بذلك.

فقال (دالما) وهو يرفع عينيه إلى السماء:

– يا عزيزي، إذا قُتلت فإنك سترتاح، غير أنّه قبل ذلك سوف تُعذّب، والتعذيب – كما سوف ترى – أقسى من الموت.

أثناء فترة المقاومة، ثم داخل مصلحة العمليات، أخبرني أصدقائي بأنه يُعدُّ من المستحيل أن يصمد الإنسان أمام التعذيب، وأنّه تأتي أوقات يصبح من الشرعي والطبيعي أن يتكلم فيها الإنسان. كان على المرء أن يصمد مدة 48 ساعة على الأقل وهو يصرخ قدر المستطاع، وذلك أن هناك معذّبين أقل مقاومة من المعذَّبين، وذلك الصراخ قد ينفع في إثارتهم ليتوقفوا عن أعمالهم.

ثم إن الصراخ ينفع إذا أحسسنا بالألم، وكانت هذه الـ 48 ساعة تسمح للمهدَّدين بالافتضاح إذا اعترف المعذَّب باتخاذ الاحتياطات اللازمة.

في أقسى الظروف والأحوال، كنا نملك سما نتجرعه، وكل شيء إذ ذاك ينتهي.

في كل مرة كنت آخذ فيها مقعدي في الطائرة التي تُقلع ليلا، كنت أفكـــر في ذلك، كنت أتوقع أن أُحرق وأن تُنزع أظافري وأسناني، مثل ما فُعل بأحد رفقائي.

هذه الأفكار كانت ترد عليَّ دائما وأنا فوق (بحر المانش) لمّا يقترح علينا الطاقم الأمريكي أخذ جرعات من (الويسكي)، وكنا نمتنع دائما.

وحين تبدأ المدافع المضادة للطائرات في استقبالنا بإضاءة السماء، كنا نعرف أننا فوق السواحل الفرنسية. لقد كانت الطائرة ترقى إلى غاية 3000 متر من أجـــل تجنب القنابل، لم نكن نقول حينها كلمة واحدة، كنت أتذكر القافلة التي تُـــساق إلى الموت، لم أكن أريد أن تُعصب عيناي، وبعد ذلك تُفتح الباب بغتة.. للصمت والفراغ.

لقد كانت شرطة سكيكدة تمارس التعذيب إذن، مثل باقي الشرطة في كل أنحاء الجزائر، وكان مسؤولوهم على دراية تامة بذلك.

لم يكن أولئك الشرطيون جلادين أو وحوشا، ولكنهم كانوا أناسا عـــاديين، كانوا أناسا مخلصين لوطنهم، وكانت روح الواجب متغلغلة في أعمق أعمـــاقهم، غير أنّ الظروف حينها كانت قاهرة. لم ألبث طويلا حتى اقتنعـــت بـــأن هـــذه الظروف كانت تفسر وتبرر تلك الأعمال، وعلى الرغم مـــن قـــساوة التعـــذيب وإثارته، كان استعمال هذا النوع من العنف - الذي كان غير مقبول في الظروف العادية - أمرا ضروريا لا منأى عنه في مثل هذه الظروف التي تتجاوز الحدود.

إذا كان الأمر يستدعي القيام باستنطاق رجال قد أراقوا دماء الأبرياء - ولـــو تحت غطاء مبدأ أو عقيدة - فإن التعذيب ضدهم سيكون شـــرعيا إذا اســـتدعت الضرورة ذلك.

إنّ معلومات يُحصل عليها في الوقت كان يمكن لها أن تُنقذ عـــشرات الأرواح البشرية، وكانت إحدى حجج الشرطة للجوء إلى التعذيب جدُّ مثيرة بالنسبة لي.

كنا نتكلم - بحياء - عن الصعوبات التي نواجهها في مهنتنا ونحن نحتسي كأسا، فقال أحد أعوان الشرطة الذي لمح أن مشكل التعذيب قد أثار حفيظتي و لم أستطع تقبُّله:

- تخيّل لحظة واحدة بأنك تعارض - انطلاقا من المبادئ - ممارسة التعذيب، ثم إنك توقف شخصا متورطا في التحضير لعملية إرهابية. المتهم يرفض التكلم وأنت لا تُصر، وهكذا تنفّذ هذه العملية التي تحصد أرواح الأبرياء، ماذا يمكن لك قوله لأقرباء الضحايا؟ ماذا يمكن لك قوله - مثلا - أمام والدي طفل مُزّقت أشلاؤه جرّاء انفجار قنبلة، من أجل تبرير موقفك بأنك لم تستعمل كل الوسائل اللازمة حتى يتكلم المتهم؟

- لا أريد أن أجد نفسي في موقف كهذا.

- نعم، ولكن تصرّف كما لو أنك كنت ستقفه، حينها سترى أيهما أصعب: أن تعذّب إرهابيا أو أن تشرح لأقرباء الضحايا بأنه يحسن بنا أن نغُضَّ الطرف أمام مقتل عشرات الأبرياء على أن نعذّب متهما واحدا.

إن مراجعة قصيرة لهذا المثال الذي ضربه أحد أعوان الشرطة كانت كافية للقضاء على شبهاتي الأخيرة، واستنتجت حينها بأنه لا يوجد أحد له الحق في محاكمتنا، لأنه حتى وإن اضطرتني طبيعة عملي إلى فعل أشياء غير حميدة فلن أندم على ذلك أبدا.

أغلبية الجنود الفرنسيين الذين ذهبوا إلى الجزائر كان لديهم علم بوجود التعذيب، ولكنهم لم يطرحوا أسئلة كثيرة لأنهم لم يجدوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع هذه المشكلة.

وكانت أقلية منهم تفعل ذلك بسخط، أكيد، ولكن دون ندم.

كان الذين يندّدون باستعمال التعذيب - طبعا - من المتعاطفين مع جبهة التحرير، وبعض المثاليين في البلد الأم (فرنسا)، والذين لو كُلفوا باستنطاق الإرهابيين، لكانوا استعملوا - ربما - وسائل أكثر وحشية.

وخارج نطاق الشرطة، أقمت اتصالات مع عمال آخرين كانوا من المفترض - نظرا لطبيعة عملهم - أن يجمعوا معلومات نافعة. كان هناك مثلا (بول) مهندس المياه والغابات الذي تحوي مصالحه منازل غابية متوزعة في كامل تراب الوطن، وكانت هذه المنازل تحت إدارة بعض المسلمين الذين تبنوا طروحات فرنسا، وهي تشكل شبكة بإمكانها جمع وإيصال معلومات ثمينة.

كما أعانني القاضي (فوغليماتشي) كثيرا، وهو من منطقة (كارجس)، أحد مناطق كورسيكا، أين يقترب المذهب الكاثوليكي من الطقوس الأرثوذوكسية.

ونصحني العقيد (كوكبورن) بلقاء النقيب (دوكاي) الذي كان يشرف على مدرسة القفز.. وأخيرا التقيت بواحد كنت أعرفه من قبل!

كان (مارسيل دوكاي) في السابق جنديا متنقلا قبل أن يتحوّل إلى مظلي، والتقينا في الهند الصينية، كما أنني أعْرف ميله المفرط إلى الصيد. وتتواجد في البراري المحيطة بسكيكدة خنازير وطيور حجل، وحتى إن كان الصيد - رسميا - ممنوعا، فإني أعلم أن (دوكاي) لا يمكنه التخلي عنه أبدا.

بعد هذه الاتصالات، بدأت - بصبر وتأن - في نسج شبكتي، حيث كان كل مُخبر يشكل خيطا من خيوطها: تجار وصناعيون ورجال أعمال ومحامون، بل تعلمت كذلك كيف أستغل الصحفي المحلي وأصحاب المقاهي والحانات وصاحبة الملهى الليلي، وحتى صاحبة المبغى العام.

وبمساعدة رئيس البلدية المحافظ (دومينيك بونكي - كروفو) وأحد مستشاريه، تمكنت من إنشاء ملف خاص بالسكان، وبدأت المعلومات حول جبهة التحرير الوطني تتهاطل عليّ، وكذا حول المتعاطفين معها وحتى أعضاء الحركة الوطنية الجزائرية[8]. كان النظام الذي أنشأته يسير بإحكام ودقة إلى درجة أني تحصلت بسرعة على أسماء متهمين لا يُشك في ضلوعهم في العمليات الإجرامية الأكثر

[8] يذكر المؤلف أن الحركة الوطنية الجزائرية أنشئت سنة 1954 من طرف مصالي الحاج لمنافسة جبهة التحرير الوطني.

الدموية، وعندما يتم إيقافهم، لم أكن لأجد فيهم صورة بطل، وإنما كانوا وحوشا لا غير.

وجاء موعد استنطاقهم.

كنت أبدأ بسؤالهم عما يعرفونه، غير أنهم أفهموني أنهم لا يريدون البوح بأي شيء.. ألا تكون ردة فعل المتهم دائما الإنكار أو لزوم الصمت؟

وهكذا، وبدون وازع من الضمير، أوضح لي رجال الشرطة تقنية الاستنطاقات "الخشنة".

بداية، كان هناك الضرب الذي كان يكفي في الغالب، ثم بعد ذلك تأتي الوسائل الأخرى كالكهرباء والماء.

كان التعذيب بالكهرباء يتم عن طريق مولّدات كهربائية تُستعمل في الأرياف من أجل شحن أجهزة اللاسلكي، وكانت هذه المولّدات كثيرة الانتشار.

وكان التعذيب يتم عن طريق صعق الأذنين أو الخصيتين، وبعدها يطلق التيار بتركيز مختلف. وكما يظهر، فإنّها طريقة قديمة، وأنا أعتقد أن شرطة سكيكدة لم تخترع شيئا في هذا المجال.

وخوفا من هذه الوسائل - أو بفضلها - كان السجناء يشرعون في تقديم معلومات مفصلة - وحتى الأسماء - التي كانت تؤدي إلى إجراء توقيفات جديدة. هذه المرة وبمساعدة الشرطة، كنت أجدني منساقا إلى المشاركة أكثر فأكثر في هذه الاستنطاقات "الخشنة"، ولم يكن هناك بدٌّ من إعطاء تقارير إلى (كوكبورن) الذي بدا جد مستاء لذلك.

وسأل العقيد وهو مُحرج بعض الشيء:

- هل أنت متأكد من أنه لا توجد وسائل أخرى من أجل اعتراف أولئك الناس.. وسائل أكثر..؟

- أكثر سرعة؟

- لا، ليس هذا ما كنت أودّ قوله.

- أعرف حضرة العقيد، كنت تريد أن تقول: "أكثر نظافة"، أنت تعتقد أنّ هذا لا يتماشى مع تقاليدنا الإنسانية.

- حقيقة، أنا أعتقد ذلك.

- وإن كنت أشاطرك الرأي، حضرة العقيد، إلاّ أنّ إنجاز المهمة التي كلفتني بها يحتّم عليّ أن لا أفكّر من منطلقات خُلُقية وإنّما من منطلقات نفعية. إن الدماء تُهرق في كل يوم، إنها وإن كانت اليوم تُهرق في الضواحي فقط، لكنها يُمكن أن تُسفك غدا في البيت المجاور.

- وماذا تفعل بسجنائك بعد ذلك؟

- تقصد بعد اعترافهم؟

- أجل.

- إذا كانت لهم علاقات مع الجرائم الإرهابية، فسوف أقوم بقتلهم.

- ولكن، ألاّ تعتقد أنّ جبهة التحرير الوطني بأكملها لها علاقة مع الإرهاب؟

- نحن متفقان إذن.

- أليس من الأفضل أن يُسلّموا إلى العدالة بدل القضاء عليهم؟ لا يمكن أن نقتل كل أعضاء منظمة ما، إن هذا جنون!

- ولكنّ هذا هو ما قررته السلطات العليا للدولة حضرة العقيد، إنّ العدالة لا تريد أن تنشغل بملف جبهة التحرير الوطني، فهم سوف يصبحون أكثر من اللازم ولا يمكننا أن نعرف أين سنضعهم، ثم إن العدالة لا تستطيع إعدام مئات الأشخاص. إنّ العدالة تسير وفق نظام جُعل في أوقات السلم، ونحن الآن هنا في الجزائر، وسط الحرب.

وأضفت قائلا:

- كنت تريد ضابط استعلامات.. إنّه الآن أمامك حضرة العقيد. وبما أنك لم تعطني تعليمات، فإني اضطررت إلى التصرف بمفردي، غير أن هناك شيء واضح:

إنّ مهمتنا تفرض علينا الوصول إلى نتائج يكون التعذيب غالبا جسرا مؤديا إليها، بل وحتى القتل، وأظن أن كل هذا ليس سوى البداية فقط.

وعقّب العقيد:

- إنّها حرب قذرة، وأنا لا أحب ذلك.

واحتقن وجه العقيد. لقد كان يعلم أنني كنت محقا، وفهمت بأنه لن يبقى طويلا في الجزائر.

وبسرعة كبيرة، كنت على اتصال بالمكتب الثاني بقسنطينة، وهو مكتب يقوده العقيد (ديكومب). لقد طلب مني أن أجمع معلومات لها علاقة بالاصطدام الذي وقع بين "الحزب الشيوعي الجزائري" وبين "جبهة التحرير الوطني"، وكانت جبهة التحرير تملك جماعات منظمة تحمل اسم "جيش التحرير الوطني"، غير أنّه كان ينقصها السلاح، وكان هدفها الأول هو الحصول عليه.

وتأكدت من ذلك عن طريق أحد الأعمال البطولية التي نسي المؤرخون ذكرها، غير أن التاريخ لن ينساها أبدا.

في أحد الأيام، قامت جماعة من المتمردين باقتحام بيت يقع بإحدى الغابات حارسه عريف غابي يحمل اسم (بوقرة لخضر). لقد كان يملك بندقية صيد، وحينما طلب قائد المجموعة التابعة لجبهة التحرير منه إعطاءه إياها، رفض (بوقرة) قائلا:

- إنّ بندقيتي ملك لفرنسا، فإذا أردت الحصول عليها تعال وخذها.

وأطلق النار ليُردي قائد تلك المجموعة قتيلا.

وأُلقي القبض على (بوقرة لخضر) وأعدم في الحين، وفي حدود علمي لا يوجد هذا الاسم مكتوبا على أي مشهد أو نصب تذكاري. هذه الواقعة وصلتني عن طريق أحد الشهود العيان بفضل شبكتي التي أنشأتها، وكانت الشهادة تنص بوضوح على أن كثيرا من المسلمين كانوا مستعدين للتضحية من أجل ما كانوا يعتقدون بأنه وطنهم (فرنسا).

أوضح لي المحافظ (بورج) أنّ أعداءنا الألدّاء هم أربعة وطنيين كانوا قد تمكنـــوا من الفرار من سجن عنابة سنة 1952، ليتحولوا بعد ذلك إلى إطارات ســـامية في جبهة التحرير.

وكان (زيغود يوسف) من بينهم، وهو أحد الحـــدادين بمنطقـــة (كونـــدي – سمندو)، والذي صار على الرغم من سنواته الـــ 34 فقط زعيما لجبهـــة التحريـــر الوطني في الشمال القسنطيني بعد موت (ديدوش مراد)، وكان قد قُضي عليه مـــع جماعة حوصرت وأوقفت من طرف رجال العقيد (دوكورنو)، وكان هناك أيـــضا شاب له 23 سنة كنا نملك صورته، لقد كان يشبه الممثل (آلان دولون)[9]، وكـــان يُدعى (غرس الله مسعود). وبما أنّه لم يكن كبيرا وكان يحمل ملامح طفولية، لُقّب بـــ (مسعود الصغير).

كان (مسعود) عضوا في الكشافة الإسلامية، وهذا لم يمنعه من أن يصبح بطّالا محترفا، وبعد ذلك متسكعا وقاطع طريق.

في بداية الأحداث، كان يقضي وقته بين تجارة غير شرعية تافهة وصغيرة، وبين دفع الفتيات نحو البغاء للحصول على المال، لكنه كان طموحا وقاسيا، وذا هيئـــة كذلك.

لقد مكّنته جبهة التحرير – مثل كثير من الذين لم يكن لهم شيء يمكن خسرانه – من تحصيل بعض الشهرة، وبفضل احتقاره الظاهر للحياة الإنسانية صار مشهورا ومعروفا.

كان مسعود في واقع الأمر شجاعا، وكنت لا أشك في أنه إذا حـــصلت بيننـــا وبينه مواجهة، فإنّه سوف يتعبنا كثيرا. وكان قد أدخل في مـــساره جماعـــة مـــن المتطرفين الصغار.

وكانت أرضية الطيران في سكيكدة تحاذي منحـــدرا بجانـــب الأرضـــية ذات الثمانين مترا. وأعلمني المحافظ (بورج) بأنه من أعلى ذلك المنحدر أقـــام رجـــال

مسعود برجا للمراقبة، وكانت تلك البقعة حصينة ومنيعة، وحتى وإن قُصفت ـلطائرات فإنّ ذلك لم يكن ليُجديَ نفعا.

وعلم (جانو دي ميغليو)، أحد مفتشي "الشرطة القضائية"، أنّ أحد مخبريه قد تم قبوله من طرف فريق (مسعود الصغير)، لقد كان لطيفا، ولكنه مهرّب صغير ومخُف للعجلات المسروقة، ثم إن عمره تجاوز الأربعين.

لقد اعترف هذا المخبر لـ (جانو) بأنه خائف من مواجهة المظليين الفرنسيين في معركة ما، وطلب منه بأن يسجنه ليصبح بعد عامين من السجن في مأمن. وبإلحاح من (بورج) ذهبت لأرى القاضي (فوغليماتشي) الذي رفض إلقاء القبض عليه دون مبرر، لأنه لم يلتحق بجبهة التحرير الوطني طواعية، كما أنه لم يشارك في أي واحدة من العمليات المسلحة أو الإرهابية.

لم نتمكن مع (فوغليماتشي) من فعل شيء، واجتمعت مع المعني بالأمر (جانو دي ميغليو)، وقمنا بإيقافه مثلما كان يريد، ثم وجدنا له مكانا يعمل فيه كسائق، غير أنه بعد ذلك ببرهة قصيرة فقد عقله وصار يهدد أصدقاءه القدامى في جبهة التحرير، وفي خريف 1956، قاموا بذبحه.

كنت أقابل إذن كثيرا من الناس، و لم يكن مراسليَّ كلُّهم ممن يتعاملون معي بدافع من الرهبة، بل كان هناك من يخدم مصالحه الشخصية عبر تعامله معي. وقمت بإرسال كثير من أولئك المُخبرين إلى الجبال، وكانت هذه الطريقة أكثر أمنا من استغلال من كانوا في عين المكان، كما أنّ (إيصولح) من جهته تمكّن من اختراق جبهة التحرير الوطني.

وبحلول الليل، كان يغيّر ملابسه العسكرية ويذهب ليحتسي قهوة مع المتمردين، بل إنّه تمكن حتى من إدخال أحد الضباط الفرنسيين معه. كان ذلك الضابط شديد البياض، ونجح (إيصولح) في تقديمه على أنه بربري لا يفهم اللغة العربية.

لقد كنت أقوم بأعمال ضخمة، ولحسن الحظ أنّها لم تكن في جانبها الأهم متعلقة بالتعذيب، بل كانت مجرد محادثات مع الناس، وهي محادثات ودية غالبا.

وكنا نستعمل في علاقاتنا العامة كل ما أمكن وحتى مخزوننا من الذخيرة.

كان للجيش الفرنسي في تلك الفترة مشكلة تموين بالسلاح ذي النوعية الجيدة، ولهذا اضطر الضباط إلى اللجوء للتجار بُغية الحصول على أسلحة جيدة، غير أن الذخيرة كانت متوفرة بكثرة.

كما أننا كنا نمارس حصص تدريب في الرماية بانتظام، وكان المشرفون على مخزن الأسلحة يزودوننا بكميات كبيرة من الذخيرة أكثر مما يمكن لنا استعماله في التدريبات. ومن هذا المنطلق، كان الضباط يملكون احتياطات يزوّدون بها أصدقاءهم من أعوان الشرطة.

ولم يكن طلب الذخيرة حكرا على أعوان الشرطة فقط، بل حتى "الأقدام السوداء" كانوا يملكون السلاح وكانت تلزمهم ذخيرة.

وقال لي الرقيب الأول المشرف على المخزن، وهو من أصل كورسيكي:

- حضرة القائد، إنّ الذخيرة نادرة بالنسبة للرجال التزهاء، إنّهم يطلبونها مني غير أنّه لا يمكن لي أن ألبي طلبهم. إذا استطعت أن تقيم تمرينا في الرماية لا قيمة له، ثم تترك لي بعض الصناديق من الذخيرة، فإني أؤكد لك بأنني سأحسن استعمالها.

- ولمن سوف تعطيها؟

- إلى مواطني سكيكدة من الفرنسيين دون شك!

وبدأت الوشايات تزداد حدة، ففي البوادي كانت كثير من "الدواوير" معادية لجبهة التحرير الوطني مبدئيا. وإضافة إلى همّ العيش بسلام، كانت هناك أسباب خاصة: أحقاد وقصص نساء غالبا. ومثلما هو معلوم، كنت إذا تلقيت معلومات كان يمكن لها أن تثير أحقاد المسلمين تجاه جبهة التحرير، كنت لا أتوانى في استغلالها، كما أنه لم يكن من النادر أن يشي المتمردون أنفسهم بعضهم ببعض.

18 جوان 1955

لم تنجح جبهة التحرير - مثل ما كانت تأمله - عندما قادت حركة التمرد في شهر نوفمبر من عام 1954 في أن تُجنّد معها مختلف فئات الشعب بكامله. وخلافا لاعتقاد سائد بكثرة، فإنّ هذا التمرد لم يكن ذا قيمة تُذكر و لم يكن كفيلا بإقلاق أحد، بل يمكن لنا القول بأنه في ربيع عام 1955، بدأت حركة التمرد هذه تشهد استنزافا كبيرا.

وهكذا غيّرت جبهة التحرير خططها جذريا، ولجأت إلى الإرهاب الذي كان يتخذ المدنيين غرضا، سواء كانوا أوروبيين أو مسلمين اشتهر عنهم أنهم "أصدقاء" فرنسا.

وكان سهلا على جبهة التحرير إخضاع الأرياف لسيطرتها، غير أنها وجدت صعوبة بالغة في التموقع وسط المدن الكبيرة، أين كان الإرهاب في طريقه إلى التصعيد والتطور.

وفي ربيع عام 1955، فهمت السلطة بعد ترقب دام عدة أشهر، وعززته حالة اللاستقرار السياسي، إلى أي حد تدهورت إليه الوضعية، وكان من الضروري - وبكل ثمن - تجنب حصول حرب داخل المدن.

وهكذا، قررت الحكومة الجديدة التي ترأسها (إيدغار فور) وكان يشغل منصب وزير داخليتها (بورجاس مونوري) خلفا (لفرانسو ميتيران)، و(روبرت شبومان) في العدالة، أخذ زمام المبادرة واستعمال الهجوم المضاد.

في الثالث من شهر أبريل، صادق البرلمان على قانون حالة الطوارئ، وكان هذا القانون كفيلا بتوثيق الصلة بين مصالح الشرطة ومصالح الاستعلامات العسكرية، فقد كان طريقة لتقنين وترسيم ما كنتُ أعمله قبل ذلك بصفة غير رسمية. وأصبحت العمليات العسكرية وعمليات وحدات الشرطة تتم بالاشتراك والتنسيق.

وفي الأيام التي أتبعت تلك المصادقة، فُرضت حالة الطوارئ في المناطق التي نالها ضرر كبير من طرف جبهة التحرير الوطني، وكان هناك تخوف من تدهور الحالة أكثر في شهر رمضان الذي صادف في تلك السنة شهر ماي، وهكذا كانت هناك تصعيدات عدوانية واضحة طوال هذه المدة.

وعلى إثر ذلك، قُرر في اجتماع للوزراء - منتصف ماي- بتدعيم الوسائل العسكرية، وذلك برفع القوات الفرنسية إلى الجزائر من 60 ألفا إلى 100 ألف عسكري، وكانت هناك تعليمات صارمة قد أُعطيت من أجل سحق التمرد، وحتى عن طريق القصف الجوي الذي كان إلى غاية ذلك الوقت أمرا يلقى اعتراضا.

وفي نفس الوقت، قررت باريس سرّيا القضاء على زعماء جبهة التحرير الوطني بكل الطرق والوسائل، بما فيها اللجوء إلى المصالح الخاصة.

في نفس الأثناء، عين العقيد (كوكبورن) ملحقا عسكريا بروما، وكان ذلك أفضل. وأعتقد أنه أحسّ بمدى التجاوزات التي كنا سنضطر إليها، ولم يكن يريد المشاركة في أعمال كهذه.

وهكذا صار مُعينه العقيد (جورج مايير) خليفة له.

كان العقيد (جورج مايير) أشقر وقوي البنية، وكان يلقب بـ (بروسبير) بسبب كثرة مغامراته النسائية، ولم تكن (سيمون) - وهي زوجة جميلة تنحدر من عائلة فرنسية تقطن في المغرب - تغضب من هذا اللقب، وإذا كان زوجها يُلقّب بـ (بروسبير)، فإنها حتما ستكون (مونات).

يُعتبر (مايير) واحدا من أقدم المظليين في الجيش الفرنسي، وهذا ما كان يزيده تألقا وهيبة في أعين الآخرين.

وعند تخرجه من المدرسة العسكرية (سان سير) قبل الحرب، قرر التحول إلى وحدة من وحدتي الجو الموجودتين آنذاك، وكانت هناك وحدات جديدة ولكنها لم تر النور حتى سنة 1937، وهي وحدات تمركزت في (حملة تحرير فرنسا) في منطقتي (الألزاس) و(فوج). وبعد ذلك توجّه (مايير) إلى الهند الصينية.

كان يخامرني إحساس بأن العقيد (مايير) سيكون أكثر غضا للطرف من سابقه فيما يتعلق بالوسائل المستعملة للتغلب على جبهة التحرير الجزائرية.

وفي 18جوان 1955، حدثت مجموعة اعتـــداءات إرهابيـــة في ســـكيكدة. وأحسست – حينها – أن الاعتداءات كانت بمثابة إهانة واستفزاز لشخصي.

لقد كنت أنتمي إلى المصالح الخاصة لــ (فرنسا الحرة) التي كانت تحت القيـــادة السامية لــ "العظيم" (شارل ديغول)، ومن هذا المنطلق كانت اعتداءات من هـــذا النوع في يوم كالثامن عشر جوان ضربة مؤلمة[10]. وعلى الرغم من أني أصـــبحت ضابط استعلامات، غير أنه لم يكن هناك شيء لديّ يسمح بتوقـــع اضـــطرابات وحوادث كهذه. وبالنسبة لضابط استعلامات، فإن شيئا "غير متوقع" يُعدُّ مخزيـــا ومهينا في وقت واحد.

انفجرت سبعة قنابل في أماكن مختلفة من المدينة، وفي نفس الـــساعة، وقامـــت بعض الجماعات بالتعدي على مارة أوروبيين بإطلاق الرصاص وباستعمال السلاح الأبيض وحتى العصي. وأُحرقت بعض السيارات وهُشّمت واجهـــات المحـــلات، ولكن وحدات الشرطة والجيش تمكّنت عن طريق اشتباكات خطيرة أحيانـــا مـــن أخذ زمام الأمور.

كان أحد "الأقدام السوداء" يتجول في الشارع فإذا به يُهاجَم من طرف أحـــد المسلمين. لقد كانا يتعارفان من قبل. ورغم ذلك، فإن ذلك المسلم حطم رأســـه بضربات فأسه.

وتمكّن قائد الأمن الحضري (ألكسندر فيليبرتي) مـــن إدراك المـــصاب الـــذي استطاع التلفظ باسم الشخص الذي اعتدى عليه. وعندما وصلتني المعلومة، قمت

[10] يصادف يوم الثامن عشر جوان ذكرى توجه الزعيم الفرنسي (شارل ديغول) من لندن بخطاب إذاعي يحثُّ فيه الشعب الفرنسي على مواصلة المقاومة ضد الألمان، وذلك ردا على (بيتان) الذي طلب الهدنة مع الألمان والعمل على التعايش معا يوما قبل ذلك، أي في 17 جوان 1940.

مباشرة بعدها باعتقال المسلم واستنطاقه. كنت أودُّ معرفة ما إذا كانت هذه العمليات مُتبنّاة من طرف منظمة مّا، وإذا كان الأمر كذلك فمن هم أعضاؤها.

لقد كان ضروريا أن يتكلم المتهم لأن ذلك التصعيد الأمني كان مذهلا للغاية، ثم إن حوادث مثل هذه كان يمكن لها أن تقع في كل وقت، والله وحده يعلم أين.

وفي اليوم الموالي انفجرت بضع قنابل، وكان الشنيع في الأمر كله هو أن أهداف القنابل كانت مدنية، وسعيتُ لمعرفة من كان وراء إعطاء أوامر مثل هذه.

امتنع المتهم عن الكلام، غير أني كنت مضطرا لاستعمال وسائل أكثر قوة، وقمت بتدبير أمري دون رجال الشرطة.

لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي عذبت فيها أحدا، و لم يكن ذلك مجديا للأسف لأن الرجل مات دون أن ينبس ببنت شفة.

لم أفكر في شيء حينها، و لم أحزن لموته. وإذا كان هناك شيء حزنت عليه ولابد، فإنه امتناعه عن الكلام قبل موته. لقد استعمل هذا الشخص العنف ضد شخص لم يكن عدوّه.. شخصٌ خطؤه الوحيد هو تواجده في ذلك المكان. ولو كانت الضحية مسؤولا أو عسكريا لكنت تفهمت ذلك، أما أن يكون أحد سكان سكيكدة الذين يعرفهم الجاني معرفة شخصية، فهذا أمر لا يُحتمل.

لقد كان الوضع طارئا، وكان بين يديّ رجل متورط بصفة مباشرة في عملية إرهابية، ولهذا فإن كل الوسائل كانت صالحة من أجل الحصول على اعترافات منه. وكانت الظروف هي التي تريد ذلك.

بعد موت ذلك السجين، طلبت من مخبريّ بإعلامي بما يحدث في سكيكدة وهل تشكّلت جماعة مسلحة فيها؟

وهكذا علمت بأن الزعماء الحقيقيين كانوا يختبئون في الجبال. بين الصخور والأحراش وداخل المغارات، وهي أماكن تستعصي على الطائرات. وحتى القنابل والمدافع والأسلحة الثقيلة عاجزة عن كشف أمكنة تواجدهم.

ولما استلم الجنرال (لوريُّو)، في بداية شهر جويلية 1955، قيادة القوات الفرنسية في الجزائر، كانت المناطق الوهرانية هادئة، وكادت الاعتداءات تتوقف في الجزائر العاصمة، وصارت جبهة التحرير لا تُظهر نفسها سوى بعمليات قليلة منظمة، ولكن مناطق الأوراس وقسنطينة بقيت – على العموم – مستعصية.

وبما أن جبهة التحرير كانت هناك أحسن تموقعا وتمركزا، فإنها فرضت نظاما من الخوف والإرهاب كان موجّها بالأساس لدفع السلطات الفرنسية نحو القمع، ومن ثَمَّ النجاح في كسب تأييد الجماهير المترقبة لقضية التحرير هذه.

وفي نحو 20 من شهر يوليو، تيقّنتُ من أنه يوجد تمركز كبير للمتمردين في المناطق التي كانت غير ممكنة الاختراق حول مدينة سكيكدة.

لقد كان هناك ما بين ثلاثة وخمسة آلاف رجل، "فلاقة" ومدنيين مختلطين. بعضهم قدم من المناطق المحاذية لسكيكدة، وبعضهم الآخر من مناطق مجاورة، وتمكنتُ في نفس الوقت من تفعيل شبكتي الخاصة، وقمت بإجراء تقطيعات وتقسيمات للمناطق.. وكان ذلك عملا مُملا.

وفقا لمنطق سليم، فإنه يجب على المتمردين أن يقتاتوا ويطعموا، غير أنهم كانوا معزولين و لم يكن لديهم من يقوم بإرسال الأكل لهم عن طريق الطائرات، كما أنهم لم تكن لهم إمدادات تزوّدهم بالغذاء، ولهذا كان عليهم أن يجدوا الطعام في مدينة سكيكدة نفسها.

قمتُ – بمساعدة الأمن الحضري – بجولة حول كل البقّالات الموجودة بالمدينة.

كان هناك بقال من منطقة "بني مزاب" بغرداية يدعى (محمد)، وكان إلى وقت قريب يبيع ما معدله كيس دقيق واحد في كل ثلاثة أيام، ولكنه تمكّن – فجأة – من بيع خمسين كيسا مرة واحدة، وكان هذا أمرا غريبا. كما قدم رجل إلى الصيدلية وقام بشراء عشرات العلب من الضمادات.

إن التحريات التي قمت بها أوصلتني إلى نتيجة مفادها أنه في يوم 20 أغسطس 1955 وفي منتصف النهار بالضبط، سوف تشن جبهة التحرير الجزائرية هجوما قويا وشاملا يقوم به آلاف الرجال ضد مدينة سكيكدة.

لقد قرر (زيغود يوسف)، قائد منطقة الشمال القسنطيني، القيام بعملية استعراضية ودموية بمناسبة مرور العام الثاني على خلع الملك محمد الخامس سلطان المغرب. وفي نفس الوقت، كان يريد دعم الاقتراح الذي قُدم للأمم المتحدة من طرف سبع بلدان إفريقية وأسياوية من بينها الهند، من أجل استقلال الجزائر.

هذا الهجوم كان سيتم عن طريق عمليات (الكومندو)، حيث يتموقع المقاتلون في أقبية داخل المدينة أياما قبل الهجوم، وكانت فكرة القيادة العليا لجبهة التحرير هي أخذ بلدة متوسطة كرهينة.

وعلمتُ بعد ذلك أنه في نفس الساعة وفي نفس اليوم، سيقوم المتمردون بالاستحواذ على مدينة مغربية، حيث وقع اختيارهم على (واد زم). وكان ذلك كله يهدف إلى إعلام العالم بأسره بأن الحركات الوطنية في المغرب الكبير تتضامن وتساند بعضها البعض، وأنه بمقدرتهم القيام بعمليات مشتركة في مناطق مختلفة.

في الجزائر مثلا، لم يكن للمتمردين وسائل تمكّنهم من الاستحواذ على مدينة كبيرة، ومن باب أولى القيام بهجوم شامل، وهكذا كان التعرُّض لمدينة سكيكدة إذن حلا جميلا. إن المدينة تحوي ميناء يشهد حيوية كبيرة، ولم تكن العملية لتتم دون أن يعبأ أحد بذلك.

وكنت على علم بهذه العملية الكبيرة قبل تنفيذها بشهر، بالمكان والتاريخ والساعة والخطة المرسومة.

وكان يجب علينا عدم التحرُّك، وانتظار العدو بأقدام ثابتة وراسخة.

الهجوم

قمت بإعلام العقيد (مايير) ثم توجهت بعد ذلك إلى قسنطينة لإبلاغ الملازم العقيد (ديكومب) من المكتب الثاني، وقلت له:

- إنه شيء واضح حضرة العقيد، سوف نتعرض لهجوم يوم 20 أغسطس بسكيكدة.

- هل سمعت عن احتمال القيام بعملية مماثلة بقسنطينة؟

- لم يخبرني أحد عن ذلك، لقد حُدّثت عن مدينة سكيكدة فقط، أما باقي المناطق فلا أعلم عنها شيئا.

- وهل سمعت بشيء مماثل يمكن حدوثه بالعاصمة؟

- لم يحدث هناك شيء - على الأقل - في الظرف الراهن، إن جبهة التحرير غير مستعدة لقيادة هجوم كامل وشامل.

ورجعت إلى سكيكدة لكي أقوم بتحرير تقرير أسلمّه للعقيد (مايير) الذي قال لي بعد الاطّلاع عليه:

- إن تقريرك جميل، غير أنه يجب الآن توقيعه وإرساله.

- إذن، وقّعه ثم أرسله حضرة العقيد.

ولكن العقيد تردّد ثم قال:

- كيف سيكون موقفي يا تُرى إذا لم يحدث شيء يوم 20 أغسطس كما تزعم؟ ثم هل تعتقد أني يمكن أن أقوم بمجازفة مثل هذه؟

غير أني لم أتمالك نفسي وصرخت - فجأة - غاضبا:

- ولكن حضرة العقيد، بما أنني أقول لك بأنه سوف يحدث شيء ذلك اليوم فإنه حتما سيحدث، وقّعه إذن.

أثناء انفعالي، استعملت العبارة المحببة للـ "العظيم" (ديغول)، ولعل هذا هو الذي أقنع (بروسبير)، وقام بتوقيع التقرير دون أن ينبس ببنت شفة.

وفي يوم الخميس 18 أغسطس، أُعلمت بأن وحدات كومندو جبهـــة التحريـــر بدأت تموقعها في أقبية داخل المدينة، ولم أكن لأتعرض لهم لأن هذا كان يُظهر أننـــا كنا على علم بما سوف يحدث، غير أن احتمال فكرة أن مئات الرجـــال المـــستعدين للقتل كانوا على مقربة منا لمدة يومين كان يثقل الكاهل، إضافة إلى أننا لم نكن نملك العدد الكافي من الرجال الذين يمكنهم القيام بالمواجهة. وفي الغـــد، قمـــت بـــإجراء إحصاء شامل للقوات التي تقع تحت أيدينا:

كان هناك كتيبتنا الأولى التي قدمت من عمليات ميدانيـــة، إضـــافة إلى بعـــض المتربصين من مدرسة القفز الذين يمكنهم مدُّ يد العون، غير أن العدد الإجمالي لقواتنا بلغ 400 رجل من الوزن الثقيل، وبقي العدد جد قليل، فليس من العدل أن نـــضع 400 رجل قبالة بضعة آلاف.

قام العقيد (بروسبير) بتزويدي بمعين، وهو الملازم الأول (سوتيرا)، وكان أحـــد المتخرجين من المدرسة العسكرية (سان سير)، لقد كان ضابط اتصالات غير أنه كان يمقت ذلك ولا يخفي تذمره من طبيعة عمله. وكان أبوه أحد الضباط الـــذين قـــضى عليهم الجيش الألماني أثناء معارك (حملة تحرير فرنسا).

وقام العقيد بتجميع ضباطه في يوم 19 أغسطس، وعلمت بأنه لم يصدّق كلمـــة واحدة مما ذكرته في توقعاتي، غير أنه لم يُرد خذلاني.

وشرع في قراءة التقرير الذي حررته، ثم توجه إليّ قائلا:

- يجب عليَّ أن أقوم صباح غد السبت بتسليم شهادات نهاية التكوين في مدرسة القفز، وبعد ذلك هناك اجتماع مبرمج في نادي المنظّمين. هل يجب عليَّ - حـــسب رأيك - حضوره أم لا يجب؟

وأجبته:

- يمكن لك أن تحضره حضرة العقيد. إني أرى أنه من الأفضل أن لا تُغيِّر شيئا من برنامجك حتى لا تُثير انتباههم.

- وماذا تقترح عليّ؟

- لا يوجد ثمّة شيء خاص، غير أنه على الجميع أن يأخذوا أماكنهم قبل خمس دقائق من منتصف النهار، وأصابعهم مشدودة على الزناد.

- حسنا أيها السادة، أبلغوا هذه التعليمات، وإذا حصل الهجوم مثل ما هو متوقع في منتصف النهار، أطلقوا الرصاص دون شح بالذخيرة، أطلقوا الرصاص بالمدافع الرشاشة، أما أنا، فسأطلب إمدادات، وإذا توقفت الهجومات المواجهة، توجهوا إلى وحدات الكوماندو الموجودين في الأقبية، ولا ترحموا أحدا.

وفي يوم السبت 20 أغسطس 1955، قررت الذهاب إلى القفز من أجل أن أخفف بعض الضغط عليَّ، وكان يجب أن أفعل ذلك مبكرا لأن الريح كانت ستهب مع شروق الشمس إلى جهة البحر، في حين كان ميدان القفز على اليابسة.

استيقظت يومها على الساعة الثالثة صباحا، وبعد القفز رجعت مع شروق الشمس إلى مقر الكتيبة.

وفي المقابل،كانت هناك حانة يديرها صهر رئيس بلدية سكيكدة.

وعلى الساعة الثانية، قطعت الطريق بهدوء من أجل تناول فطور الصباح مع قهوة قوية، بيض مقلي وبعض النبيذ، وكنت على علم بأن رجال الكوماندو الذين كانوا يشاهدونني من الأقبية يموتون رغبة في إطلاق النار عليَّ.

وارتفعت درجة الحرارة إلى حد لا يمكن احتماله.

ومر بي أحد محافظي الشرطة وقال:

- هل أنت مستعد حضرة النقيب؟

- أنا أقوم في هذه اللحظة، مثلما ترى، بتناول فطوري الصباحي، لا يمكن القتال جيدا ببطن فارغ!

وأخبرني أحد سواق سيارات الأجرة أن سيارته حُجزت من طرف جبهة التحرير.

ودخل شخص آخر إلى الحانة، وأخبر بأنه لم يجد سيارة أجرة واحدة في المحطة.

كان العقيد (ماير) منسجما لدرجة كبيرة مع (بول ديكورنو)، أحد المتخرجين من مدرسة (سان سير)، أين كان يقود الوحدة الثامنة عشر للمظليين لـ (سان شارل)، وأخبره (ديكورنو) بأنه لم يكن ثمّة شيء خاص في مقاطعته، وإذا حدث

الهجوم فإنه وعد بأنه سيهرع لمساعدتنا دون توان، وذلك أن وحدته الثانية كانـــت متموقعة 6 كيلومترات جنوب سكيكدة.

كانت جبهة التحرير تقوم بالتصنت على أجهزة الإرسال اللاسلكي والهاتف، وتم اعتماد إشارة خاصة لإخبار القائد توماس الذي كان يقود تلك الوحدة الثانية.

وكان (ديكورنو) يطمئن العقيد (مايير) قائلا:

- (جورج)، إذا ظهر "الفلاقة" فما عليك سوى أن تجعل الهاتف يرن وسوف يرد توماس بالرشاشات ليلقّنهم درسا لن ينسوه.

كانت الساعة قرابة منتصف النهار عندما قمت بإعطاء التعليمات الأخيرة لرجالي، وفجأة دخل محافظ الشرطة (فيليبرتي) رفقة حارسيه قائلا:

- حضرة النقيب، يجب أن تُعيرني رجالك وسيارتك.

- ولماذا؟

- عندي حارسان يتأهبان لإجراء إيقاف في "الحي الروماني".

كان الحي الروماني على بعد كيلومترين جنوب سكيكدة، قرابة المكان الذي تقيم فيه الكتيبة الثانية للوحدة الثامنة عشر للمظليين، وأجبته على الفور:

- آسف حضرة المحافظ، ولكن هذا غير ممكن.

- ولم؟

- تسألني لماذا.. في حين أن "الفلاقة" سيكتسحون المدينة في أقل من ساعة!

- ولكن لن يستغرق هذا العمل ساعة كاملة، إني أؤكد لك ذلك.

- اسمع، ليس هذا وقتا مناسبا لذهابك هناك، ولكي تُقتل فوق ذلك.

- لن يستغرق هذا أكثر من دقيقتين، لا يمكن لك أن ترفض لي طلبا كهذا.

وقمت بإحضار (إيصولح) و(ميزيري)، ثم قلت لهما:

- رافقا هؤلاء إلى الحي الروماني، أوقفوا الأشخاص وعودوا بكـــل ســـرعة ولا تتعرضوا لاشتباكات أبدا.

وبعد نصف ساعة من ذلك، رجع (فيليبرتي) وعلامات الذل بادية عليه، وأردف قائلا:

– خبر سيء، اتصل بي أعوان الأمن المتواجدون بجنوب سكيكدة وأخبرونا بـــأن رجالنا اصطدموا بأكثر من 500 من "الفلاقة".

– تبا، كنت على يقين أن الذهاب إلى هناك كان مجرد حماقة، لن نبعث لهم مددا.

– وماذا سنفعل؟

– أنت الذي ورّطتهم، فتحمل مسؤولياتك وحدك.

وركض (فيليبرتي) إلى سيارته وأخرج الرشاش الذي أحضره من المكتب ولم يعد يفارقه، ثم قال:

– سوف أذهب إليهم.

وقلت معقّبا عليه:

– إن الأمور تسير من حسن إلى أحسن، فقدنا أربعة من رجالنا وإذا أضفنا لهـــم محافظ شرطة، فإن هذا اليوم قد استهل بخير!

ورغم ذلك ذهب المحافظ (فيليبرتي)، وعند وصوله رفقة رجاله إلى الحي الروماني، رأوا (إيصولح) و(ميزيري) والاثنان الآخران وهم يدافعون عن أنفسهم بقوة مذهلـــة ضد مجموعة من "الفلاقة" الذين ترافقهم نسوة تطلق الأعنة لزغاريدها، وحينها أخرج (فيليبرتي) رشاشه وبدأ في التصويب على الجميع.

وعلى بعد مئة متر، كانت هناك شاحنة متوقفة وتصدر رائحة قوية للبترول، لقـــد كانت الشاحنة تنقل قنابل (المولوتوف) الموجّهة للهجوم على سكيكدة.

واستغل (إيصولح) فرصة وصول المحافظ ورجاله ليتقدم ويرمي رمانة نحو الشاحنة حتى انفجرت، وتمكن هو وبقية الرجال من الانسحاب، وعند رجوعهم كانت الساعة تشير إلى حوالي الحادية عشر والنصف.

وقال لي (بروسبير):

– ومتى سيبدأ ذلك الهجوم؟

– لقد بدأ حضرة العقيد، وأظن أن الوقت قد حـــان لمنـــاداة الوحـــدة 18 وإلا سوف يذيقوننا العلقم.

وأُخطرت كتيبة (توماس) بالتوجه إلى الحي الروماني.

كان المتمردون قد ضيعوا بعض الوقت بسبب ذلك الاشتباك الطارئ، وكـــان في صفوفهم موتى واضطروا إلى نقل الجرحى أيضا.

لم يكن لكتيبة (توماس) غير قطع أربعة كيلومترات لملاقاة المتمـــردين، و لم تكـــن مسافة أربعة كيلومترات مشيا على الأقدام شيئا يُذكر بالنسبة لجنود مدربين بـــصفة جيدة.

ووصلت الكتيبة وشرعت في إطلاق النار صوبهم دون تمييـــز، و لم تـــؤثر فـــيهم الزغاريد المنطلقة من حناجر النساء، وقُتل كل من كان في الواجهة، ولـــسوء الحـــظ كان من بين القتلى نساء وأطفال كانوا رفقة المتمردين.

وفي منتصف النهار، في وسط مدينة سكيكدة، أخذت الطلقات النارية تُسمع من كل صوب، وكان المتمردون – وهم من البدويين الذين لم يكونوا مـــسلحين كمـــا ينبغي – مؤطّرين من طرف رجال من جبهة التحرير أكثر وأحسن تسلحا.

لقد كان شيئا مذهلا، وذلك أنهم كانوا يتقدمون بنظـــام وكـــأنهم في عـــرض عسكري، لقد كانت سكيكدة تحوي أكثر من 20.000 نسمة، وحتى ولـــو كـــان الكثير منهم على شواطئ البحر، كان يمكن للأمور أن تتجه نحو الأسوأ.

وفي نفس الوقت، خرجت وحدات الكومندو التي كانت متواجـــدة في الأقبيـــة يومين أو ثلاثة أيام قبل الهجوم وشرعت في أداء مهامها، غير أن الكتيبـــة الفرنـــسية ردت عليهم بسرعة.

وتعرّض المقر الذي كنت متواجدا به إلى طلقات للرشاش، وكان ذلك بواســـطة أشخاص خرجوا من أحد الفنادق المقابلة، قبالة المكان الذي كنت أعتـــاده وقـــاموا بالهجوم وهم يصيحون[11].

---

[11] واضح أن المؤلف يشير هنا إلى صيحات "الله أكبر" التي كان يُطلقها المجاهدون، وهذا التكبير كان الواجهة الحقيقية التي تعبّر عن كيان المجتمع الجزائري، قبل عمليات (العبث) التي طالت مقومات الوجود كله، ومـــن بينها تاريخ "الجهاد الجزائري" الذي تحول بعصا سحرية إلى اسم "ثورة"، مثلما تحـــول اســـم "المجاهـــد" إلى "جندي"، ومثلما حاول البعض كذلك دوس بيان نوفمبر والقفز عليه صوب أرضيات ولوائح أخرى ليـــست

وسئمت بسرعة من هذه الجلبة والضوضاء، فخرجت رفقة بعض رجالي، وفوجئ
ـهاجمون برؤيتنا، ولجأوا إلى الانسحاب من أين أتوا تحت رصاص رشاشاتنا، غـــير
ـهم لم يتوقفوا عن إطلاق النار.

وقمنا باجتياز الطريق بسرعة تحت صوت الرصاص الذي كان يصفر في آذاننـــا،
ـقد كنا وسط طلقات النار المتقاطعة القادمة من الواجهة ومن الطرقات، وبدأ الأمـــر
يتحول إلى جحيم.

كان للمقهى مدخل رئيسي وآخر في الخلف، وطلبت من (ميزيري) بأن يتـــبعني
ـحاول مباغتتهم بالرمانات من الباب الخلفي، ولكن الباب كـــان مغلقـــا، وقـــام
ميزيري) بإطلاق النار عليه، ومن ارتداد الشظايا، بدا واضحا أن الباب كان سميكا،
غير أن بعض الرصاصات تمكنت من اختراقه لأننا سمعنا صراخا بالداخل.

ورجعنا إلى جهة المدخل الرئيسي للمقهى، حيث كان الرصـــاص في اســـتقبالنا.
وبعدما رمينا بعض الرمانات قمت باقتحام قاعة المقهى التي أمطرناها بوابل رشاشاتنا،
ـ أر من قبل مثل هذا العدد من زجاجات الخمر تذهب هباء، ولا أتكلم على مالكها
ـدي لم يكن في صالحه بقاؤه هناك.

وهكذا، تراجع أولئك الرجال إلى القبو، غير أنهم لم يغلقوه بل أكملوا إطلاق النار
من الباب المفتوح، لقد كانوا مصممين على الثبات.

لم نتمكن من الدنو منهم، ولم يكن القضاء عليهم ممكنا دون خـــسائر كـــبيرة،
وطلبت من رجالي التخلي عن البطولات الزائفة وأن يكملوا إطلاق النار من أجل شد
ـتباه المتمردين إليهم.

وفي ذلك الوقت، اقتربت رفقة (ميزيري) وقمنا بإلقاء رمانتين، وعند انفجارهمـــا
تحول المكان إلى لهيب ونار.

مصلحة الجزائر وشعبها هدفها الأول.. لقد كانت معركة المصطلحات حربا أخرى، ولا تزال، وقـــد تكـــون
أهم في محاولة بناء الضمير الجمعي والباطن الشعوري لكيان الأمم والمجتمعات.

لحظات بعد ذلك، توقف إطلاق الرصاص القادم من أسفل، غير أن القبو كان كبيرا وكنت أعلم أن الكومندو كان لا يزال هناك ولن يطول المكث حتى يخرج، ومن كلا الجانبين، حبسنا أنفاسنا وقمنا بتجديد ذخيرتنا، وفجأة خرج بضعة وعشرون رجلا من القبو المليء بالدخان، وقمنا باستقبالهم برشاشاتنا و لم ينج منهم أحد.

كانت المعارك ضارية خارج المقهى، ومررنا بمقر الحزب الشيوعي وكان مناضلوه قد غادروه حذرين ليتركوا المكان لبضعة وخمسين رجلا من رجال جبهة التحرير الذين قضوا الليلة فيه، و لم يعد دليل المواجهة الذي طلبه مني الملازم العقيد (ديكومب) من المكتب الثاني بقسنطينة ضروريا، فلقد كان الأمر واضحا للعيان.

وفي الطريق الممتد إلى الكتيبة، كان المتمردون يواصلون تقدمهم وعلى وجوههم مسحة من الخبل والبلادة، وقمت بإحضار جندي من أجل مساعدتي قصد إيقافهم، وبدأ ذلك الجندي بإطلاق النار على أولئك الرجال الذين كانوا ينهارون واحدا بعد الآخر.

لقد كان تصرفهم غير معقول، فكلما سقط أحد "الفلاقة" واصل رفاقه طريقهم دون أدنى اهتمام به، وبدل أن يسعوا لحماية أنفسهم أو اللياذ بالفرار، كان يبدو عليهم أنهم لا يهمهم كل ما كان يجري. وفي الشوارع المتاخمة تم استقبالهم بالرشاشات، ورغم ذلك لم يتقهقر أحد منهم، ولهذا السبب كانت حصيلة خسائرهم ثقيلة.

وأرسل نائب المحافظ (ديبيش) من شدة هلعه رسالة إلى الجزائر العاصمة يقول فيها إن سكيكدة قد سقطت في يد جبهة التحرير، وبأن كل شيء قد انتهى، ثم توجه للاختباء في قبو بيته، غير أنه في يوم سبت في الجزائر العاصمة، كان الجميع في شواطئ البحر، وكانوا يسخرون من رسالة (ديبيش) مثلما سخروا من قبل من التقرير الذي أرسله العقيد (ماير) شهرا قبل ذلك، و لم يأخذ أحد التهديدات التي كانت تخيم فوقنا مأخذ الجد، وكنتُ على دراية بهذا عن طريق قريبي الذي كان يقطن هناك، والذي

كنت أراه أحيانا، بل إن أصدقاءه كانوا يقولون بأن ما يسمى "جبهة التحرير الوطني" شيء لا وجود له أصلا!

ترك المتمردون وراءهم 134 قتيلا في طرقات المدينة، وكذا مئات الجرحى الذين لم يكلفوا أنفسهم عناء أخذهم، ولهذا اضطررنا لتقديم الإسعافات لهم، وقُتل ضابط صف ممرّض عندما ذهب ليبحث عن أحد "الفلاقة" الجرحى، كما أن أحد قواد الوحدات عندنا تعرض لطلقات رصاص قادمة من أحد الأقبية، وذلك أنه عوض أن يضرم النار في البيت أو أن يقضي على المهاجمين بالقنابل، فضّل التعامل بطريقة قانونية، وهذا ما جعله يرجع إلى فرنسا داخل تابوت.

حادثتان لإثبات حسن النية كلفتانا قتيلين، كما أنه كان هناك مئات الجرحى، وقمنا بالتقاط أحد القواد الصغار لجبهة التحرير وهو في حالة خطيرة قرب محافظة الشرطة التي حاول الهجوم عليها.

لقد كانت فكرته فكرة سيئة، لأنه استُقبل من طرف (فيليبرتي) الذي لا يفارق رشاشه (من نوع 24 – 29)، وكان كل رفاقه قد قتلوا، أما هو فلقد جُرح لسوء حظه من طرف (فيليبرتي)، وكان المحافظ غير مستعجل لإرسال الجريح إلى المستشفى، وفضّل استنطاقه وطلب مني مساعدة (إيصولح) الذي مثّل دور سجين ينتمي إلى جبهة التحرير، وتم زجّه تحت الضرب في زنزانة ذلك الجريح.

وقال (إيصولح) متباكيا – وكان فنانا بارعا:

– لم يكن الحظ معنا، لقد تلقينا درسا اليوم.

وأجاب الآخر:

– نعم، غير أن (زيغود يوسف) زعيم المنطقة القسنطينية قد نجا، وكذا (سي خالد).

– سي خالد؟ من هو؟

– إنه سي خالد.. المصري

وأرسل الجريح زفرة حادة دون أن يضيف شيئا آخر.

كان هناك مسؤول آخر تعرض لكسر في عظم الفخذ سببته رصاصة رشاش من نوع (12.7) وأجريت له عملية من طرف الدكتور (فانسان) جراح مستشفى سكيكدة رفقة الدكتور (بي) من العاصمة الذي قدم للمساعدة، و لم يتمكنا من تخديره، فالعقار المخدر الذي حُقن به من طرف الممرضة لم يفعل فعله، وكان لابد من مضاعفة التخدير، ورغم ذلك، بمجرد أن انتهت العملية الجراحية فتح المتمرد عينيه، واستغرب الجراحون ثم فهموا سبب ذلك، لقد كان أغلبية المهاجمين تحت تأثير تخدير "الكيف" الذي قُدم لهم ليدخنوه، وهذا ما يفسر سبب لامبالاتهم عندما كنا نطلق النار عليهم.

وفي الساعة الواحدة زوالا انتهى كل شيء، وتبعا لتعليمات زيغود يوسف، انسحب القواد الذين رأوا أن الأمور تسير نحو الأسوأ وهم يحملون أسلحة الذين ماتوا هنالك.

لقد تركوا رجالهم هناك، سالمين أو جرحى ليواجهوا مصيرهم معنا، لقد حسب زيغود يوسف ببرودة الخسائر الفادحة التي سيتعرض لها، وذلك لأن رجاله لم يكونوا جدّ مسلحين، لأن المهم في كل هذا هو تنبيه الرأي العام، وعلى قدر الدماء المراقة يكون الكلام، كثيرا أو قليلا.

لقد جعل زيغود يوسف في الواجهة رجالا كانوا تحت تخدير الحشيش. و لم يكن موتهم - بالنسبة له - أكثر من موت المدنيين الذين أمرهم بقتلهم، وحينها تيقنت أنه دون معلوماتي التي تحصلت عليها، كان يمكن أن تحدث في سكيكدة مجزرة تماثل في فظاعتها تلك التي حدثت في (الهالية).

بن مهيدي

في مساء 10 فبراير 1957، اهتزت العاصمة على وقع ثلاث انفجارات لم يفصل بينها سوى بضع دقائق.

انفجرت قنبلتان أثناء مقابلة في كرة القدم بملعب الأبيار وخربتا مدرجاته، وكانت الحصيلة 11 قتيلا و56 جريحا في حالة خطيرة، أغلبهم تعرّض للتشويه.

ويوما بعد ذلك، في نفس اللحظة التي أعدم فيها (فيرنان إيفتون)، صب (ماسو) جام غضبه علينا أنا و(ترانكيي) وكأننا المرتكبون الفعليون لهذه الجرائم، وقال:

- ما الذي أسمعه أيها الأوغاد، أهديتم لنا قنابل في هذه المرة!

كان (ماسو) يتكلم بطريقة استنتاجية، لقد وُجدنا من أجل القضاء على جبهة التحرير، فإذا حدث وأن انفجرت قنابل، فإن ذلك يعني أننا نحن المخطئون. وكنا نعتقد انطلاقا من مهامنا نفس الشيء، وهذا ما يفسر غياب الضمير الوازع في عملنا.

وزادت هذه العمليات من عزيمتنا، وأسبوعا بعد ذلك، في ليلة 15 إلى 16 فبراير، قمنا بإلقاء القبض على (بن مهيدي).

لقد تحصلنا على عنوانه، وتم تبعا لذلك إيقافه من طرف الوحدة الثالثة للمظليين التي يقودها (بيجار)، تحت إشراف (جاك ألير) ضابط استعلامات هذه الوحدة. وبقيت هذه المعلومة المهمة سرا لمدة أسبوع كامل.

كان (بن مهيدي) - دون أدنى شك - المسؤول الرئيس عن كل العمليات الإجرامية بصفته البطل الأول في معركة الجزائر، وبصفته الرقم واحد للجنة التنسيق والتنفيذ التي أنشئت من أجل تعويض فريق (بن بلة).

وطمأن (بيجار) سجينه وعامله باهتمام واحترام. وطفقا يتحدثان ليالي بأكملها وجها لوجه، وهما يحتسيان قهوة.

وأراد (بيجار) استغلال التشاحن القديم الذي حصل بين (بن مهيدي) و(بـــن بلة)، وفعل ذلك بالحديث عن تفوق (بن بلة) وتحسيسه بأنه ليس ســـوى بـــديل مؤقت. وهكذا بدأ السجين الكلام دون أن يشعر، وكان (بيجـــار) يلعـــب دور الرجل الذي لا يُصدّق ما يقوله (بن مهيدي)، وكان (بن مهيدي) مضطرا - تبعـــا لذلك - لإعطاء معلومات إضافية من شأنها إثبات أنـــه الرجـــل الأول في جبهـــة التحرير حقيقة. و لم يكن يتحدث سوى عن مجال يعتقده صغيرا، وهو مـــا يتعلّـــق بنظام التموين والتنظيم الخاص بجبهة التحرير، ولكنّ هذه المعلومات كانت ثمينـــة جدا.

وشرع (بيجار) و(بن مهيدي) في مقارنة وحـــدتيهما ونظاميهمـــا وكأنهمـــا صديقان حميمان.

ووجد (بيجار) نفسه منساقا في هذه اللعبة وبدأ يشعر بصداقة حقيقيـــة تجـــاه زعيم جبهة التحرير الذي لم يُعذَّب على الإطلاق. وكان يمكن لعلاقات الثقة بـــين الرجلين أن تفتح المجال واسعا لمشاكل عويصة.

كان (بيجار) يقول بأنه يجب استعمال (بن مهيدي) لأنه يمكن لـــه أن يقنعـــه بذلك، وبدأ (ماسو) يقلق من ذلك.

و لم تكن الطريقة التي عومل بها (بن مهيدي) لتروق الجميع.

وعين (ماسو) القاضي (بيرار) في قيادة القوات، وكان مكتبه متواجدا بـــالقرب من مكتبي - وشغل (بيرار) في نفس الوقت كما ذكرنا منصب قاضـــي التحقيـــق مكلف بإعلام مكتب حافظ الأختام (فرنسوا ميتيران) - ولهذا كان على اطـــلاع بما يجري عندنا دون المرور على الوسائل الرسمية.

كان (بيرار) مضطربا بسبب توقيف (بن مهيدي)، و لم يتوقـــف لحظـــة عـــن الحديث حوله.

وسألني صباحا:

- ولكن، ما الذي يمكن أن نفعله بـــ (بن مهيدي)؟

- لا يهمني ما الذي يمكن فعله به، فأنا لم أساهم في إيقافه، فالأمر يتعلق بـ (بيجار).

- ولكن يحدث لك أن تتدخل في كل شيء، أليس كذلك؟

- لماذا؟

- أردت فقط معرفة ما إن فتشته.

- لست أنا من يقوم بذلك.

- هذا ما كنت أعتقده، إذا لم تقم بتفتيشه، فإنك لم تنتزع منه قرص السم الذي يحمله معه.

- ماذا تقول؟

وقال (بيرار) وهو يضغط على كل كلمة تخرج من فمه:

- إنني لن أُعلّم مثلك بهذا.. أنت تعلم أن كل الزعماء يحملون أقراصا من السم القاتل.

لم يكن لما طلبه مني (بيرار) - ممثّل العدالة - أن يكون واضحا أكثر من هذا، ولذلك أجبته بنفس النسق، قائلا:

- وإذا فرضنا مثلا، سيدي القاضي، أننا قمنا بتفتيشه و لم نجد عنده قرصا من السم، هل عندك فكرة عن الكشك الذي يبيعه لأنهم نسوا وضعه في جملة أدواتي الخاصة.

و لم يغتظ القاضي.

ثم أردف قائلا:

- هذا من شأنك، تدبّر أمرك لأنك محترف.

وتوجهت نحو الدكتور (ب)، وهو جراح كنت أنا و(مايير) على معرفة خاصة به، وكنت أعلم أنه رجل ثقة. وأفهمته أننا نبحث عن سم لكي نمكّن شخصية كبيرة في جبهة التحرير من الانتحار. وسجّل الطبيب مباشرة اسما وعنوانا في ورقة بيضاء وقدمها لي، قائلا:

- اذهب إلى هذا المكان من قبلي، وستُعطى ما تريده.

وذهبتُ إلى العنوان المذكور، وهو صيدلية متواجدة بالعاصمة، حاملا معي هذه الوصفة الغريبة.

كان الصيدلي من الأقدام السوداء، وابتسم ابتسامة خفيفة عندما أخبرته بسبب بحثي عن السم، وقال لي:

- هل أنت مستعجل؟

وأجبت وكأن الأمر لا يهمني كثيرا:

- لا أبدا..

- إذن تعال غدا صباحا في الساعات الأولى.

وفي الغد، قدَّم لي الصيدلي زجاجة سم تحوي حوالي 75 سنتي لترا.

- ولكنني أحتاج قرصا وليس زجّاجة.. لن أقدمه له هكذا ليشربه.

- تدبَّر أمرك فهذا كل ما عندي، ليس أمامك سوى إحكام مسكه، وسترى بأن هذا المحلول لا يرحم.

خبأت هذه القارورة مدة طويلة في مكتبي بالمحافظة، وهو المكتب الذي يحاذي مكتب المحافظ (باري)، وكان البعض يعرف ماهيتها، وأصبحت بالتالي موضع تنكيت منهم، كأن يقول أحدهم مثلا:

- اسمع (أوساريس)، هل أنت مستعد دائما لدعوتي للشراب؟

وقام (غارسي) بوضع الزجاجة أمام زجاجة الخمر الذي جلبه من مصر، وترك أحد الزوار مرة يختار ما يشربه بنفسه، فوقع اختياره على زجاجة السم وهو لا يدري، ولم ينبهه (غارسي) إلا في اللحظات الأخيرة وهو جد مسرور بنجاح حيلته.

وفي أحد الأيام، توجهتُ صباحا نحو مركز قيادة (بيجار) لأقابل بن مهيدي، وكان (بيجار) رفقة معينه (لونوار).

وتم إحضار زعيم جبهة التحرير.

وأحضر أحد الجنود الحليب والقهوة للجميع.

كان (بيجار) يريد أن يُظهر لي أنه يتحكم في الوضع جيدا، وأنه فاز بثقة سجينه، غير أنه بدا جد قلق، فهو كان يعلم أنه يجب عليه إقناعي بأن (بن مهيدي) يقبل التعاون معنا، وهذا غير معقول لأن الأوامر صدرت بقتل زعماء جبهة التحرير، وأنا هنا لأجل القيام بذلك، وبدأت أظن أن (بيجار) استهلك ما عنده ولا يمكنه فعل شيء آخر، وسأل سجينه:

- قل لي (بن مهيدي)، ما رأيك في وحدتي؟

وأجابه (بن مهيدي) مبتسما:

- أعتقد أنها تعادل ثلاثمائة ألف رجل..

- وما رأيك في عملية توقيفك؟

و لم يعرف (بن مهيدي) ما يجيب به.

وقرر (بيجار) لعب الورقة الأخيرة، فقال موضّحا:

- هل لديك شعور مّا بأنهم خانوك؟

- ومن يخونني؟

- رفقاؤك في لجنة التنسيق والتنفيذ، فهم جميعا قبائليون وأنت عربي.

وفهم (بن مهيدي) أن (بيجار) يريد إنقاذ حياته، فابتسم ابتسامة تأسُّف، ثم قال:

- لم يخُنّي أحد حضرة العقيد.

وفقد (بيجار) ضبط أعصابه نوعا ما، وقال:

- وما الذي فعلناه لكي نُلقي القبض عليك؟

- لقد كنتم محظوظين.. وفقط.

الصحيح في الحكاية هو أننا تتبعنا ابن الملياردير (بن شيكو) الذي كان يملك مصنعا كبيرا للتبغ بالجزائر العاصمة، وكان يُسيّر أموال جبهة التحرير في نفس

الوقت. وعندما أوقفنا ذلك الابن، شرع في ذكر كل ما يعرفه، ومن بين ذلك عنوان (بن مهيدي).

وأراد (بيجار) – مرة أخرى – إنقاذ سجينه، فقال:

– ولماذا لا تعمل عندنا.. ألا ترى أن تقرُّبك من فرنسا يخدم بلادك؟

– لا أظن ذلك.

وختم (بيجار) كلامه رافعا كتفيه:

– ظُنّ ما تشاء، أما أنا، فإنني أؤمن بفرنسا الكبيرة.

لم يُرد (بن مهيدي) التعاون معنا، و لم يكن لـ (بيجار) أن يتجاهل نتائج هذا الرفض.

كانت الشرطة القضائية بقيادة (بارا) و(جيفودان) تريد (بن مهيدي) بشدة، ولكن (بيجار) رفض رفضا قاطعا تسليمه للشرطة، ظنا منه أنهم سيعذبونه لا محالة.

كان (بارا) يقول بأنه يمكن اتهام (بن مهيدي) بقتل خصوم جبهة التحرير في الغرب الجزائري، ولكن هل كان (بن مهيدي) ليقر بذلك؟

لقد كنا نعلم أنه بخبرته يُعتبر مسؤولا عن أغلبية العمليات الإجرامية، وهو يستحق الإعدام، عشر مرات بدل إعدام واحد، ولكننا لم نكن نتيقن لجوء القضاء إلى هذا الحكم.

وفي 3 مارس 1957، تحدّثنا في هذا الأمر طويلا مع (ماسو) بحضور (ترانكيي). وتوصلنا إلى نتيجة مفادها أن محاكمة (بن مهيدي) عن طريق القضاء أمر غير مرغوب فيه، لأنه كان سيُحدث صدى دوليا. كما أنه كان علينا ربح الوقت لأننا كنا نأمل في توقيف كل أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ التابعة لجبهة التحرير.

و لم يخن (بن مهيدي) رفقاءه، ولكننا عثرنا على معلومات ثمينة في الوثائق التي كانت بحوزته.

وسألني (ماسو):

- ما هو رأيك؟

وأجبته:

- أنا لا أرى لماذا يكون (بن مهيدي) أفضل من الآخرين، وفي مجال الإرهاب لا يثيرني القائد أكثر من المُنفّذ البسيط. لقد قتلنا كثيرا من الشياطين البؤساء الذين يُنفّذون أوامر مثل هذا الرجل، وها نحن نتلكأ منذ قرابة ثلاثة أسابيع من أجل معرفة ما الذي سنفعله فقط!

- إنني أوافقك تماما، ولكن (بن مهيدي) لا يمر دون إثارة الانتباه، ولهذا لا يمكن القضاء عليه بمثل هذه الطريقة.

- لن نتركه للشرطة القضائية، فإنهم سيلجأون إلى تعذيبه حتى يعترف، وأنا رأيته وأعرف أنه لن يتفوّه بشيء. وإذا أُجريت المحاكمة و لم يعترف بشيء، فإنه سينجو حتما، وجبهة التحرير من ورائه.

وواصلت قائلا:

- اتركوه لي قبل أن يتمكن من الهرب، وهذا ما يهددنا فعلا إن بقينا على ترددنا هذا.

وقال (ماسو) وهو يطلق زفرة:

- تصرّف كما ترى وافعل الأفضل، وسأقوم بالتستر عليك.

وفهمت بأن (ماسو) تحصّل على الضوء الأخضر من الحكومة.

أنا هو الذي تسلّم بن مهيدي ليلة بعد ذلك في (الأبيار). وأُعلم (بيجار) بذلك فتدبّر أمره لكي يكون غائبا وقت تسليمه.

ووصلت بسيارات (جيب) وشاحنة وبرفقتي بضعة عشر رجلا من فريقي الأول وهم مدججون بالسلاح.

وكان النقيب (ألير) هو المداوم حينها، وقام بصف فريق صغير من رجال وحدته، وطلبت منه إحضار (بن مهيدي) وتسليمه لي.

- اعرضوا الأسلحة!

كانت هذه هي الكلمات التي وجّهها النقيب (ألير) لفرقته عندما خرج (بن مهيدي) من المبنى.

وتفاجأت عندما رأيت فرقة المظليين التابعة للوحدة الثالثة تقوم بتحية الشرف الأخيرة لزعيم جبهة التحرير المهزوم. لقد كان هذا هو التقدير الذي قام به (بيجار) للرجل الذي أصبح صديقه.

وأزعجني هذا العمل الاستعراضي المبني على المشاعر نوعا مّا، وحينها فقط عرف (بن مهيدي) ما الذي ينتظره.

وأدخلناه الشاحنة، وتوجهنا بسرعة مُفرطة لأن كمينا تحضّره جبهة التحرير لتحريره كان جدّ محتمل.

وقدّمتُ تعليمات صارمة إلى ضابط الصف المكلف بحراسة زعيم جبهة التحرير الوطني، وقلت له:

- إذا تعرّضنا لهجوم مّا، فاقض عليه مباشرة حتى وإن خرجنا سالمين، أطلق عليه النار ولا تتردّد.

وتوقّفنا في مزرعة منعزلة كانت وحدتي تقيم فيها على بعد بضعة وعشرين كيلومترا جنوب العاصمة، يسار الطريق. وكانت تلك المزرعة إعارة من طرف أحد الأقدام السوداء، وهي تحوي بناية متواضعة لا تتجاوز الطابق الأرضي، وكان فريقي الثاني ينتظرني هناك.

كانت الوحدة الأولى للمظليين تحوي بضعة وعشرين رجلا، وكان بعضهم ممن يؤدون الخدمة العسكرية، ولكنهم كانوا أهلا للثقة. وكان النقيب (ألير) المدعو (تاتاف) هو المسؤول عنهم، وكان جد مخلص وشرحت له ما الذي سيجري. وأخبرته بأنه يجب على رجاله تهيئة مكان من أجل (بن مهيدي)، وذلك أن المزرعة ليست مهيأة لذلك، فهي تحتاج إلى تنظيف ونقل لأكوام التبن الموجودة هناك.

وفي نفس الوقت، قمنا بعزل السجين في غرفة مهيأة سلفا، وكان أحد رجالي يقف قبالة بابها.

وبمجرد إدخال (بن مهيدي) إلى الغرفة، قمنا بتقييده وشنقه، بطريقة تفتح المجال لاحتمال حدوث عملية انتحار.

وعندما تأكّدت من موته، قمت بإنزاله ونقله إلى المستشفى.

وبناء على أوامري، ترك ضابط الصف المكلف بنقله المحرك مشتغلا و لم يوقفه، وذلك حتى يتسنى لنا الانطلاق مباشرة وبسرعة كي لا نُقدّم أدنى تفسير إذا حضر طبيب مصالح الاستعجالات.

وكنا في منتصف الليل تقريبا.

وناديت مباشرة بعدها الجنرال (ماسو)، وقلت له:

– حضرة الجنرال، إن (بن مهيدي) أقدم على الانتحار، وجثته موجودة بالمستشفى، وسأقدم لك تقريرا غدا صباحا.

وغمغم (ماسو) ثم أقفل الخط. لقد كان يعلم أن تقريري كان جاهزا منذ الزوال، كي أربح بعضا من الوقت.

وكان القاضي (بيرار) أول من قرأ هذا التقرير، وهو يصف بدقة كل تفاصيل الانتحار الذي سيقع في الليلة القادمة.

وبدا القاضي مأخوذا بما قرأ، وقال:

– إن هذا شيء جيد، هل تعلم أنه سينطلي على الجميع؟

ولكن التقرير – في الحقيقة – لم يصمد طويلا.

استقدمني (ماسو) إلى مكتبه أياما بعد ذلك، ثم قال:

– اسمع (أوساريس)، أنا في ورطة، وسأضطر لمقابلة الوكيل العام (روليكي).

وقلت مستغربا:

– ماذا! هل اجترأ فعلا على استدعائك؟

– نعم، من أجل الحديث عن انتحار (بن مهيدي).

– إن هذه وقاحة، ويمكنك ألا تجيبه نظرا لمنصبك. وسأذهب أنا شخصيا بما أنني أُمثّلك لدى المصالح القضائية.

وهكذا توجهت صوب الوكيل، وقلت له:

- سيدي الوكيل العام، أنا أمثل الجنرال (ماسو)، ونظرا للمنصب الذي أشغله، فأنا على دراية كبيرة بملابسات وفاة (بن مهيدي). بل إنني حررت شخصيا التقرير الذي اطلعتم عليه.

وانفجر الوكيل العام غاضبا وهو يقول:

- نعم جيد، فلنتكلم عن تقريرك. إن كل ما تتحدث عنه في هذا التقرير هو مجرد كلام فقط، ولا يوجد ثمّة أدلة. ما هو الشيء الذي تُقدّمونه لتُثبتوا ما تقولون، معاشر العسكريين؟

وأجبته قائلا:

- نيتنا الطيبة.

كنت أعلم أن صفع (روليكي) كان أهون من هذا الجواب.

وبدأ يكرر وهو يخنق رقبته:

- نيتك الطيبة! نيتك الطيبة بصفتك عسكريا طيبا أم ماذا؟

ولبست قبعتي ثم حييت الوكيل العام بقرع العقب، وخرجت.

و لم نسمع مرة أخرى عن هذا الوكيل العام.

كان موت (بن مهيدي) ضربة مصيرية بالنسبة لجبهة التحرير في الجزائر العاصمة، وبدأت العمليات الإجرامية تقل، وشرع أغلبية المتمردين في الانسحاب نحو الأطلس البليدي.

وقمنا باستعمال المزرعة التي أُعدم فيها (بن مهيدي) مرات أخرى، وطلبت من بعض رجال الوحدة حفر حفرة كبيرة، وتم دفن أكثر من عشرين جثة فيها.

الأستاذ بومنجل

أُعلمت الوحدة الثانية للمظليين تحت قيادة (فوسي فرانسوا) باغتيال ثلاثة فرنسيين، وهم زوجان شابان وطفلهما الرضيع، في جنوب العاصمة، في حين كانوا يتنزّهون فوق دراجة. كما تمّت الوشاية بالقتلة – الذين كانوا من المسلمين المنحرفين – من طرف مسلمين آخرين، وتم استنطاق السجناء من طرف (د)، ضابط استعلامات الوحدة المذكورة.

واعترف القتلة قبل إعدامهم بأن هذا الاغتيال قد تم بأمر وبتمويل أحد أبرز المحامين في الجزائر العاصمة، ألا وهو (علي بومنجل) الذي أراد بهذه العملية الاستعراضية تبديل أسطورة الإرهاب بصورة المثقف العالمي التي كانت تجري في عروقه.

وكان (بومنجل) – مثل قياديي جبهة التحرير الآخرين، ومن بينهم (ياسف سعدي) – مغتاظا من الشعبية التي يحوزها قاطع الطريق (علي لابوانت) الذي بدأ يُعتبر (روبن وود) الجزائري، حيث كان ينجو دائما من دورياتنا بالتخفّي في زي نساء.

وكان (بومنجل) مسجلا في قوائمنا، وكنا نعرف أيضا أنه متعاطف مع جبهة التحرير الوطني، ولكن نظرا لعلاقاته الكثيرة التي كان من بينها عدة أعضاء من الحكومة من أولئك الذين يلعبون على الحبلين، لم يقربه أحد.

وتم إلقاء القبض عليه أياما قبل إيقاف (بن مهيدي)، وأحدث ذلك ضجة كبيرة.

وكان للأستاذ (بومنجل) أخ يعمل في سلك المحاماة مثله أيضا، حيث قام بإبلاغ النخب الباريسية.

وبعد محاولة انتحار فاشلة كلفته قضاء عدة أيام في المستشفى، صرّح (بومنجل) دون صعوبة ودون أن يتعرض إلى أي ضغوط كانت أو أدنى عنف، بدوره في العملية التي نُسبت إليه، حيث أعار منفذيها مسدسه الخاص من طراز (7.65).

كما صرّح أنه كان يشغل منصبا هاما في صفوف جبهة التحرير، وذلك لأنه كان ابتداء أحد مسؤولي منظمة الجزائر، وكان مكلفا بإجراء الاتصالات بين جبهة التحرير والدول التي كانت تساعدها، ولهذا كان يشغل منصب وزير للخارجية - غير الشرعي - للتمرد.

وبما أن (بومنجل) كان بارزا، فإنه لم يُتخذ في حقه أي قرار حتى بعد أسبوع من اعترافه، وكان لا يزال في يد الوحدة الثانية للمظليين.

ونظرا لهذه الأهمية، كان الحل الأقل مجازفة هو تسليم المحامي إلى العدالة، وهذا ما كان يضمن عدم نيله جزاءه كما يستحقه، ولم نتمكن من إدانته بشيء سوى توفير السلاح للإرهابيين، وكان هناك تواطؤ واضح ومعترف به بالقتل، غير أنه لم يكن هناك شك أنه بمجرد مثوله أمام القضاء فإنه سوف يُطلق سراحه بعد أن يجري أخوه بعض المكالمات الهاتفية.

وكان يجب علينا أن نتخذ قرارا حاسما.

وفي 23 مارس 1957، قمنا بمشاورات طويلة مع (فوسي فرانسوا) و(ترانكيي) و(ماسو)، لنعرف ما الذي يمكننا فعله به.

ولم يكن المحامي في نظري سوى مرتكب جريمة قتل، رغم علاقاته مع كبار المسؤولين التي لم تكن لتؤثّر فيّ، ولم أكن أرى الأمر سوى من هذه الزاوية فقط.

وبما أن الحديث كان يدور في فراغ، نفد صبري وخرجت، وحينها التفت (ماسو) إليّ وصوّب عينيه نحو عينيّ وقال بحزم:

- (أوساريس)، ممنوع أن يهرب السجين.. مفهوم؟

وعند سماعي هذه الكلمات، توجهت مباشرة إلى الأبيار في نهج (كليمونصو)، أين كان (بومنجل) موقوفا. في منطقة مليئة بالمباني، كان بعضها متصلا ببعض بواسطة جسور صغيرة في سطوح الطابق السادس، وكانت زنزانة (بومنجل) متواجدة في الطابق الأرضي.

وتوجهت نحو مكتب الملازم (د) الذي بدا مندهشا حين رآني، ثم قال لي:

- ما الذي يمكن أن أفعله لك حضرة القائد؟

- لقد كنت في اجتماع مطوّل مع الجنرال (ماسو)، وحسب ظني عند الخروج من هذا الاجتماع، فإنه يجب أن لا ندع بومنجل في هذه البناية التي يوجد بها حاليا.

- ولماذا؟

- لعدة أسباب.. يمكنه أن يهرب مثلا، فكّر قليلا.. إن (ماسو) سيكون غاضبا إذا حدث ذلك.

- وأين يجب أن نضعه إذن؟

- لقد فكرتُ في ذلك جيدا، وأرى أنه من الأحسن أن يحوّل إلى المبنى المجاور، ولكن احذر.. يجب أن لا تمر عبر الطابق الأرضي لأن هذا سوف يجلب الأنظار.

وجحظت عينا (د) الذي لم يفهم قصدي، وإن بدأ دون شك في استشفافه، وقال:

- حضرة القائد، قل لي بالتفصيل ماذا عليّ فعله؟

- إن هذا شيء بسيط، قم بإحضار سجينك، ولكي يتم تحويله إلى المبنى المجاور عليك اجتياز الجسر المتواجد في الطابق السادس، وأنا سأنتظر في الأسفل إلى حين فراغك من التحويل، هل فهمتني الآن؟

و هزّ الملازم (د) رأسه دليلا على الاستيعاب.

وبعد فترة، رجع (د) لاهثا ليخبرني بأن (بومنجل) سقط من الطابق السادس، وقبل أن يرميه من أعلى الجسر، قام بصرعه بضربة مقبض قادوم وجهه صوب قفاه.

وقفزت إلى سيارة (جيب) ورجعت إلى (ماسو) والآخرين الذين كانوا لا يزالون مستغرقين في حديثهم.

وقلت:

- حضرة الجنرال، لقد قلت لي بأنه لا يجب لـ (بومنجل) أن يهرب، اطمئن إذن فإنه لن يهرب لأنه - ببساطة - انتحر.

وأصدر (ماسو) - كالعادة - غمغمة، وغادرتُ المكان.

كان لوفاة (بومنجل) صدى كبير، وأُسيل من أجل ذلك كثير من الحــبر، وتم اللجوء إلى قمة النفاق، لأن الحكومة – مثلما هو الحال في ظروف كهذه – أمرت بإجراء كل أنواع التحقيقات وكتابة مختلف التقريرات، وتمت مناقشة ذلك حتى في المجلس.

وكنت على علم بالحملات التي تقودها النخب الفكرية والثقافية الباريسية ضد التعذيب، وتوجه فيها أصابع الاتهام صوب الجيش الفرنسي، ولم أكن أرى ذلك إلا طريقة من طرق مساندة أعمال جبهة التحرير.

ولكن هذا "الانتحار" – الذي لم ينطل على الذين يعرفون ما يجــري – كــان إنذارا موجها لجبهة التحرير ولكل المتعاطفين معها.

لم نكن في البداية نتعرض إلا للصغار، أما الآن، فــإن الأمــر أصــبح يتعلــق بالوجهاء، وفهم كثير من الناس أن (بومنجل) كان على صلة بأناس من فرنسا، أين كان بعضهم يلعب دورا حيويا ومهما في التمرد الجزائري.

وبين وجيه مسلم ووجيه فرنسي، لم يكن هناك غير خــيط واحــد، وكنــت مصمما على قطعه. وكان (ترانكيي) يشاطرني الرأي.

وقررت نتائج تشريح جثة (بومنجل) أنه مات بسبب السحق، وأن جــسده لم يحو أي دليل على استعمال العنف ضده، ولم توجه إليّ أي تهمة قــط، وأقــر (د) الرواية الرسمية التي تخلُص إلى الانتحار غير المفسَّر للمحامي الجزائري.

وفي الوقت الذي مات فيه (بومنجل) وما أعقبه مــن تــصرفات هــستيرية في الأوساط السائدة لجبهة التحرير، بدأتُ أفكر في الاهتمام بـــ "حاملي الحقائب"[19]، ولم يكن هناك من سبب لمعاملتهم معاملة متميزة عن المسلمين.

وأوشكنا على الانتصار في معركة الجزائر.

وكان علينا أن نعمل في قلب فرنسا من أجل التخلّص نهائيا من جبهة التحرير.

[19] يُقصد بهم الفرنسيون الذين يحملون الحقائب المليئة بالأموال التي تجمعها جبهة التحرير من فرنسا ليدخلوها إلى الجزائر.

الفـــــهــرس

الجلفة 2018

الطبعة الأولى